كلام عيال

عن أيامنا الأكثر براءة

هشام أبوالمكارم

كلام عيال
المؤلف : هشام أبوالمكارم

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : يناير 2018
رقم الإيداع : 27880 / 2017
الترقيم الدولي : 978-977-769-200-7

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف– الدور
الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : (02)23963002

إلي أمي وأبي

رحمهما الله

أختي وأخي

أبطال هذه الحكايات

وإلي بناتي:

ريم

سماح

بسمة

الحاضر والمستقبل

هشام

hesham_224pres@hotmail.com

ـ 1 ـ

لم يكن يداخلني أدني شك في أن الأسرة سوف تقدر حجم معاناتي في هذا اليوم، بل وتصورت أنهم سيطلبون مني ـ دون أي جهد لإقناعهم ـ ألا أعود لهذا المكان الغريب، لكن خاب أملي عندما قصصت عليهم ما جري في يومي الأول، فابتسموا نفس ابتسامة مدرس الصباح وهو يتعامل مع زملائي الباكين، سلمت أمري لله وذهبت في اليوم التالي إلي المدرسة!

كان عامي الأول في التعليم، لأول مرة أخرج وحيدًا من بيت كان حريصًا علي أن يعزلني عن العالم المحيط بي، بدوافع طبقية أحيانًا، وبدافع الحرص علي التربية والأخلاق وعدم مخالطة رفقاء السوء أحيانًا أخري.. خرجت يصحبني رجل ـ أو سيدة لا أذكر ـ تم تكليفه باصطحابي حتى باب المدرسة القديمة، هذا هو اسمها ولا أدري إن كان الاسم وصفًا لجدرانها الكالحة وفصولها المتهالكة، أم أنهم قد أطلقوا عليها هذا الوصف تمييزًا لها عن مدرسة أخري أحدث منها!

أدي الرجل ـ أو السيدة ـ المكلف باصطحابي مهمته، وعند باب المدرسة ترك يدي واستدار لينصرف، هكذا ببساطة شديدة، لم يكن هذا المُكلف يعرف ساعتها حجم المشاعر الغريبة التي تجتاحني، إحساس بالغربة، بالضياع، بالخوف من مجهول مرعب لا أعرف ماهيته، لكنني متيقن من أنه سيحدث خلال دقائق..

أكاد أسمع ـ الآن ـ صوت دقات قلبي يومها، لا توجد فرصة للتراجع ولا مفر من الاستمرار، دخلت من باب المدرسة، لحظتها شعرت بأن ما بداخلي ليس مجرد هواجس طفل يبدأ يومه الدراسي الأول، لكنها حقيقة واقعة، لحظتها بدأت أحدد ملامح هذا المجهول

الذي يخيفني، إنه طوفان الأطفال الذي يستهدفني منذ اللحظة الأولي، كان عددهم كبيرًا جدًا، ورغم أن هناك بالتأكيد من يحضرون إلي المدرسة لأول مرة مثلي، إلا أنني شعرت بأنهم جميعًا يعرفون بعضهم البعض، وأنا وحدي الغريب بينهم، فشلت في أن أجد بينهم شبيهًا لي، بحثت في وجوههم عن الخوف الذي يملأ قلبي فلم أجده، وكأنني يومها قد استحوذت علي كل الخوف، بينما استأثروا هم بكل ما خلقه الله من شجاعة!

وقفت وحيدًا حتي بدأ الطابور، لم تمر دقيقة دون أن يصطدم بي أحدهم، أو يدخل اثنان في مشادة تتطور إلي اشتباك بالأيدي، وأثناء الاشتباك والتجاذب يأخذونني في طريقهم، وبينما أحمل حقيبتي وأحاول البحث عن ملاذ آمن، ينظر إليَّ أحدهم بعينين متورمتين لا يبدو أنه قد غسلهما قبل مجيئه، يسألني عن صفي الدراسي، تخرج الكلمات من فمي مبتورة فأقدم له ـ قبل أن نكمل التعارف ـ فرصة ذهبية للسخرية من ارتباكي!

بعد الطابور تم توزيعي علي أحد الفصول، التلاميذ حولي يتسمون بالهدوء إلي حد ما، باستثناء اثنين أو ثلاثة يبكون بشكل متواصل، وعندما يسألهم المدرس عن السبب يجيب بعضهم بأنه يريد الذهاب إلي الحمام، بينما يرفض البعض الآخر تقديم أي مبرر لبكائه، وعندما يمارس المدرس قدرًا من الضغط ينفجرون أكثر في البكاء وينضم

إليهم آخرون، ويعلن أحدهم في لحظة شجاعة:

ـ عاوز أروّح!

لم يجد فريق الباكين من معلمنا سوي ابتسامة باردة تشي باعتياده علي ما يحدث، ساعتها تملكني إحساس غريب بأنني لم أرَ أمي منذ زمن بعيد، غمرني شوق شديد إليها، وهي التي كانت منذ ساعة واحدة تودعني وتشد علي يدي، ورغم ذلك حاولت أن أتأقلم مع زملائي، كنت في غاية السعادة عندما تحدثت مع أحدهم فرد بمودة، علي عكس ما كنت أتوقع، كبر الأمل في داخلي فجأة، ورحت ألوم نفسي لأنني ظلمت كل من حولي، فها أنا أحدث زميلي المجاور لي فيرد عليّ، بل ويحاول أن يجرني إلي مزيد من الحديث، أشعرني ذلك بالأمان إلي حد ما، وقلت في نفسي إن الأيام القادمة ستكون ـ فيما يبدو ـ جميلة، أو علي الأقل ليست سوداء كما كنت أظن!

في الحصة التالية، دخل علينا أحد المدرسين يحمل أوراقًا يقرأ منها بعض الأسماء التي كان من بينها اسمي. بعد أن تجمعنا، طلب منا أن نتبعه لأننا سنذهب إلي فصل آخر، شعرت بغصة، وعاد القلق يغزوني مرة أخرى، وقد صدق حدسي، كان الفصل الجديد الذي ذهبنا إليه يضم عشرات التلاميذ جميعهم يشتركون في شيء واحد، ملامح الشراسة الواضحة علي وجوههم!

كان النصف الثاني من يومي الدراسي الأول تجسيدًا حيًا لكل

مخاوفي التي تخلصت منها ساعة أو ساعتين ليس أكثر، ثم عادت لتتراقص وتتقافز مجددًا أمام عينيَّ، كل من حولي مشتبكون في مشادات، أو اشتباك بالأيدي، أو يمارسون خطف الحقائب من بعضهم البعض، حتي انتهى اليوم، وعدت حزينًا وبائسًا وقد اتخذت قرارًا بعدم الذهاب للمدرسة مرة أخري مهما كان الثمن!

لم يكن يداخلني أدني شك في أن الأسرة سوف تقدر حجم معاناتي في هذا اليوم، بل وتصورت أنهم سيطلبون مني ـ دون أي جهد لإقناعهم ـ ألا أعود لهذا المكان الغريب، لكن خاب أملي عندما قصصت عليهم ما جري في يومي الأول، فابتسموا نفس ابتسامة مدرس الصباح وهو يتعامل مع زملائي الباكين، سلمت أمري لله وذهبت في اليوم التالي إلي المدرسة!

كانت المعركة ساخنة، هذا اشتبك مع ذاك، تدخل ثالث، صارت معركة، وعندما حاولت الانسحاب خائفًا، اصطدم بي أحدهم، ثم وضع آخر ساقه أمامي فوقعت متشبسًا بحقيبتي، توقفت المعركة رغمًا عن أطرافها، لأنهم جميعًا دخلوا في نوبة ضحك متواصل علي هذا الولد البدين الذي قام ينظف ملابسه، وهو يجاهد لكي يحبس دموعه التي لو أفلتت ستصبح الكارثة أعظم وسيجد الأعداء فرصتهم الذهبية لمزيد من السخرية!

وبينما أنتظر مزيدًا من الأحداث دخلت هي....

نعم هي..

فتاة تكبرني بعدة سنوات، ممتلئة الجسم، لكنها لا تخلو من رشاقة، ربما لخطواتها الواثقة، اتجهت رأسًا إلي حيث أقف، هشت من كانوا يصنعون دائرة حولي، لم أندهش من جرأتها بقدر ما كانت دهشتي من انصياع الجميع لها، ساد صمت غريب إلا من صوتها تؤنبهم جميعًا، ثم تساعدني في هندمة ملابسي وتخبرهم بأنها قريبتي، قالت كلامًا كثيرًا لا أذكره بالطبع، لكنني كنت فرحًا ومنتشيًا، خاصة عندما أخذتني من يدي لنخرج من الفصل!

ـ أنا «مريم» ....

هكذا قالت، وأضافت أنها تعرفني جيدًا لأنها تمر من أمام منزلنا يوميًا في طريق الذهاب والعودة من المدرسة، ولو أحببت يمكن أن نذهب ونعود سويًا كل يوم...

حاولت ـ الآن ـ أن أتذكر جملة واحدة قلتها لمريم يومها لكنني فشلت، لا أعرف إن كنت قد قلت شيئًا ونسيته مع الزمن، أم أنني ـ ساعتها ـ كنت فقط مأخوذًا بجمالها، وأسيرًا لجرأتها في الدفاع عني وحمايتي، فالتزمت الصمت..

رحت أحكي لأمي عنها، عرفتها، وحكت لي عن أمها وأبيها، فهي ابنة طبيب الوحدة الصحية الذي يقيم في قريتنا منذ فترة مع زوجته القاهرية وأبنائه، وجدت عند أمي تفسيرًا للهجة «مريم» التي

تختلف عن لهجتنا الريفية، فهي لا تعطش حرف الجيم، ولا تنطق حرف القاف مثلما ينطقه أهل قريتنا في الصعيد، عندما استوعبت كلام أمي قلت لها وقد وجدت حلًا للغز اختلاف اللهجة بيننا:

ـ مصراوية يعني!

ضحكت أمي، يبدو أنها قرأت بغريزة الأنثي ما أخفاه طفلها، وقد كانت محقة، فقد أحببت المدرسة!

لم تكن لقاءاتنا كثيرة، ولا أذكر فيمَ كانت أحاديثنا ـ إن كانت بيننا أحاديث ـ كل ما أذكره أنني كنت أجد سعادتي في القرب منها، حتي لو رأيتها من بعيد وهي تضحك مع زميلاتها، في لهجتها رقة لا أعرفها، ولا أجدها عند أهلي وأقاربي، وعندما اقتربت الإجازة الصيفية تملكني حزن شديد لأنني سأفتقدها، حزن جعلني أقول لأمي ذات يوم:

ـ أنا هتجوز المصراوية!

***

لم يحدث بالطبع أن تزوجت «مريم»، وظلت أمي تذكِّرني بقصتي معها، حتي بعد أن كبرت، تحكي أمي وتضحك، وهي لا تعلم بأنني ما زلت أحتفظ بالبنت المصراوية في قلبي، مثل نقطة ضوء طاهرة وبعيدة، وكلما فتشت صندوق ذكرياتي، أراها مجرد طيف شفاف يهرول نحوي، يخترق جموع المتشردين لكي ينقذني، أتذكر فقط أنها

كانت طفلة كبيرة، جميلة وبريئة، وفوق ذلك جريئة، قوية، ومقتحمة، بينما كنت أنا، طفلًا خائفًا، مهزومًا، مرتعشًا..

طوال هذه السنوات كنت أبحث عن صورتها، أحاول مرة تلو الأخرى تدقيق ملامحها الغائمة، فلا أري سوي مشهد واحد، أراه واضحًا تمامًا، كأنما حدث بالأمس، مشهد جنازة «مريم» وهي تسير أسفل بيتنا بعد أن ماتت في حادث خلال نفس العام الذي عرفتها فيه، ماتت البنت الجدعة، وها هي تمر للمرة الأخيرة من أمام بيتنا، متوجهة إلي مثواها الأخير، ولو انتبهت للحظة من داخل نعشها، لرأت صديقها الخائف، المهزوم، المرتعش، متشبسًا بشرفة منزله، عيناه معلقتان بجسدها المسجي، وهو يبكي بحرقة.

2

لم أنبهر بأي من المغريات التي حدثوني عنها، لكنني توقفت طويلًا عند «البطة التي يركبها أطفال الحضانة»، ظللت أيامًا أتخيل نفسي وأنا أتحرك راكبًا البطة، سألت نفسي: هل يا ترى حجمها مثل حجم البط الذي تربيه أمي؟ وكانت الإجابة المنطقية أن حجمها لابد أن يكون أكبر بكثير، حتي تتحمل الركاب الذين يتناوبون عليها!!

لم يكن يومي الدراسي الأول هو الحكاية الدرامية الوحيدة في حياتي التعليمية، فقد سبقته بسنوات حكاية أخري جرت أحداثها حينما قررت أسرتي إلحاقي بالحضانة، حكاية طريفة أبطالها أنا و«البطة»!!

من الغريب ـ مبدئيًا ـ أن يكون بقريتنا البعيدة في الصعيد، «حضانة»، لكن لأنني من مواليد أواخر الستينيات، عندما كانت مصر تعيش علي بقايا منجزات عبد الناصر، الذي كان مؤمنًا بقيمة المواطن المصري، وحريصًا علي تطوير حياته، صحيح أن عبد الناصر كان يتخلي عن هذا الإيمان وذاك الحرص، عندما يتجرأ نفس المواطن ويعارضه، لكن كانت هناك منجزات لا تُنكر!

حضانة قريتنا التي أتحدث عنها، كانت جزءًا من كيان يسمي «الوحدة الاجتماعية»، يضم موظفين يتبعون وزارة الشئون الاجتماعية يقدمون كل ما يخطر ببالك من خدمات، لا تقتصر ـ مثلما هو حالها الآن ـ علي صرف معاشات الضمان الاجتماعي للفقراء الذين لا يملكون موردًا للرزق، بل كانت تضم إلي جانب ذلك الحضانة التي أشرت إليها، وحديقة صغيرة جميلة ونظيفة، وفي الحديقة ألعاب للأطفال، والأهم أن نفس المبني ملحق به مسرح، نعم مسرح به

خشبة وكواليس وباب خلفي للممثلين، وقاعة متوسطة ومجهزة بمقاعد ثابتة، كان شباب القرية يقيمون علي هذا المسرح حفلات غنائية ومسرحيات، وعندما بدأت طريقي في الكتابة وأنا لم أزل شابًا، كتبت مسرحية وقام أصدقائي بتمثيلها، وحضر عرضها عدد كبير من أهل قريتنا، هذا الكيان صار الآن ـ للأسف ـ مجرد مبني خرب متآكل، جفت أشجار الحديقة، لم تعد الحضانة موجودة، أما المسرح فلم أسمع به أبدًا في زياراتي لقريتنا، وإن لم يكن قد تم هدمه فهو في أفضل الأحوال مغلق!

أعود إلي قصة التحاقي بالحضانة..

من الطبيعي مثل أي طفل أن أخاف من مجرد ابتعادي عن بيتنا، فما بالك وأنا ذاهب إلي الحضانة، حيث أطفال لا أعرفهم، ومشرفة تصدر الأوامر ولها علينا الطاعة، ومن الطبيعي أيضًا أن تحاول أسرتي ترغيبي في هذه الخطوة المهمة وشرح ما تحمله من مميزات، أهمها أنها تؤهلني لدخول المدرسة بعد سنوات، يتخلل ذلك حديث عن الحديقة الملحقة بالحضانة وما بها من أشجار فاكهة مثمرة، أما عن الألعاب المعدة لاستخدامي، فحدث ولا حرج، بداية من الكرة ومرورًا بالمراجيح، وانتهاء بالبطة التي يركبها الأطفال وتسير بهم ليتجولوا في الحديقة!

لم يلفت انتباهي أي من المغريات السابقة، لكنني توقفت طويلًا عند

«البطة التي يركبها الأطفال»، ظللت أيامًا أتخيل نفسي وأنا أتحرك راكبًا البطة، سألت نفسي: هل يا تري حجمها مثل حجم البط الذي تربيه أمي؟ وكانت الإجابة المنطقية أن حجمها لابد أن يكون أكبر بكثير، حتي تتحمل الركاب الذين يتناوبون عليها!!

كيف تتحرك إذن؟ هل نقودها نحن مثلًا؟ وهل ركوب البطة جزء أساسي من البرنامج اليومي في الحضانة أو أنه متاح في بعض الأيام فحسب؟ وهل هي بطة واحدة لنا جميعًا أو أن هناك أكثر من بطة؟ وهل من الوارد أن تغضب البطة من أحدنا مثلًا فتعضه؟

صرت أسيرًا لحلم البطة المعجزة، أتأمل البط في حظيرة منزلنا وأقارن بينه وبين الصورة التي رسمتها في خيالي، حتي أصبحت أنتظر أول يوم لي في الحضانة بفارغ الصبر..

وعندما جاء ذلك اليوم، رافقني أحدهم إلي الحضانة، ومع خطواتي الأولي استدعت ذاكرتي كل حكاياتهم، رحت أفتش عن كل شيء، الحديقة بأشجارها موجودة، صحيح أنها ليست أشجارًا مثمرة لفاكهة من كل الأنواع، ولا توجد سوي شجرة فاكهة واحدة لا أذكر نوعها ولا أحد يستطيع الاقتراب منها، لكن ليست مشكلة، قالوا إن هناك حديقة وها هي الحديقة، الألعاب منصوبة في وسط الأشجار علي النجيل الأخضر كما وصفوها لي، المشرفة لطيفة وليست مصاصة دماء كما كنت أظن، ولكن أين البطة؟ ولماذا لا أري أيًّا من الأطفال

يركبها؟

دخلت إلي قاعة كبيرة كان بها عدد من الأطفال بعضهم يأكل وبعضهم الآخر يلعب، تجولت بنظراتي في المكان بحثًا عنها، ووجدتها بالفعل، لكنها لم تكن البطة العجيبة التي حدثوني عنها..

ضمن ألعاب كثيرة مصنوعة من البلاستيك كانت تقبع بين يدي طفل يعبث بها، بطة حقيرة لا تملك من أمر نفسها شيئًا، أستطيع أن أحملها بيد واحدة لو رغبت، لا تتحرك بالطبع إلا لو دفعها الطفل بيده، فتندفع لمسافة قصيرة تساوي قوة دفع يده الصغيرة، ثم تقف علي الأرض ببلاهة!

شعرت بوخز سكين في قلبي الصغير، أتمني لو استطعت العودة ـ الآن ـ إلي هذا اليوم لكي أصف لكم بدقة تلك المشاعر الغريبة التي سيطرت عليَّ وأنا أحملق في هذه الدمية التي أحالت أيدي الأطفال لونها الأبيض إلي لون رمادي قبيح..

خدعوني إذن!

استدرجوني إلي هذا المكان بحكاية ساذجة لا أساس لها، وصدقتهم لأني تافه وعبيط، ولولا أنهم يعرفون حجم تفاهتي لما جرأوا علي خداعي بهذه الطريقة، ولكن سوف أرد لهم الصفعة!

لم تكن قد مرت دقائق علي وصولي واكتشافي للمكان عندما وقفت في وسط القاعة ورحت أبكي بحرقة وأصرخ بعلو صوتي، أبكي

دون سبب، وأصرخ بصوت أصاب المشرفة بالهلع حيث لم يحدث ما يستدعي كل هذا البكاء من الوافد الجديد..

حاولت مرارًا أن تداعبني، تارة بالكلمات الطيبة الودودة، وتارة أخري بما لديها من ألعاب صغيرة، لكنني واصلت البكاء والصراخ حتي أعيتها الحيل وفشلت تمامًا في تهدئتي، فأسرعت نحو التليفون لتتصل بمنزلنا وتطلب منهم إرسال من يأخذني لأنني أبكي بشكل متواصل دون سبب!

ظل هذا اليوم محفورًا في ذاكرتي، حتي بعدما كبرت وصرت أتردد كثيرًا علي نفس المبني، كنت بمجرد دخولي أستحضر ـ رغمًا عني ـ تفاصيل ذلك اليوم وأبتسم، يوم أن عدت إلي منزلنا بعد ساعات قليلة، ورفضت العودة للحضانة تمامًا، ورغم حزني الشديد، لم أعاتب أمي يومها لأنها شاركت في خداعي، ولم أصارح أحدًا بأن سبب هروبي من الحضانة هو صدمتي في البطة المعجزة التي رسمتها في خيالي البريء، لأن مصارحتهم بالحقيقة معناه أنني أقدم لهم برهانًا جديدًا علي سذاجتي..

اخترت الصمت، وكتمت قصتي عن الجميع، بل وعزمت لو أعاد أحدهم حديثه عن بطة الحضانة أن أنظر إليه مبتسمًا وأرد عليه ساخرًا: فيه حاجة اسمها بطة نركبها وتلف بينا؟ أنت فاكرني عبيط؟!

3

رسخ في ذهني أن الشيخ محمد ليس بشرًا مثلنا، ليس مجرد رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، بل هو ملاك يهبط من السماء، أو مخلوق عجيب يمتلك قدرات خارقة، وهل يمكن لبشر مثلنا أن يقطع القرية من شرقها لغربها في هذا الظلام الدامس دون أن يخاف؟، وإذا تجاوزنا معجزة سيره في الظلام دون أن يهتز له جفن، فكيف نجد تفسيرًا منطقيًا لعدم خوفه من هذا العدد الهائل من الكلاب التي تطارده وهي تنبح بشكل كفيل بأن يبث الرعب في نفس أي شخص عادي مثلنا؟ هل أحتاج إلي أدلة أخري أعظم من ذلك لكي أتأكد من أن عم محمد المسحراتي ليس بشرًا مثلنا؟!

لم يكن شهر رمضان في طفولتي مرتبطًا بمسلسلات أو برامج تليفزيونية، لأن التليفزيون ـ كجهاز ـ لم يكن متاحًا للكثيرين، بل لم تكن الكهرباء ذاتها قد دخلت كل المنازل، لذا فإن الراديو هو وسيلة الترفيه الوحيدة، الإذاعة المصرية ببرامجها العظيمة، مسلسل الساعة الخامسة والربع الذي يجمع كل الأسرة حول الراديو الذي يعمل بالبطاريات، وكان من بين العلامات المميزة لشهر رمضان مسلسل سنوي من بطولة الفنان العظيم فؤاد المهندس، وزوجته الفنانة شويكار، أما علي السحور فأنت تستمع إلي الشيخ سيد مكاوي والمسحراتي من أشعار فؤاد حداد..

بين الإفطار والسحور، يتجمع الناس في بيت أحد أعيان القرية الذين كانوا «يُسَهِرون»، أي يفتحون بيتوهم للسهر وسماع القرآن الكريم، حيث كان «الكبار» يحجزون مسبقًا أحد المشايخ المعروفين بالصوت الرخيم، في قريتنا أو القري والمدن المجاورة، يحضر الشيخ بعد صلاة العشاء ويبدأ تلاوة القرآن حتي موعد السحور، وكان الكبار يتنافسون فيما بينهم في الاتفاق مع أكثر المقرئين شهرة وصيتًا، وحضور السهرة هو واجب علي رجال القرية ولو لليلة واحدة، لأن

تجاهل حضورها مرة أو مرتين خلال الشهر كان يعني في عرف هذه الأيام عدم احترام صاحب البيت الذي يدعو الناس للسهر في بيته!

أما الأطفال فكانوا يقضون الوقت بعد الإفطار في اللعب، وترديد الأغاني التي يرحبون بها بشهر رمضان علي طريقتهم، ومن أشهرها :

يا صايم رمضان يا عابد ربك
كلبتنا البيضة تحبك في خدك
يا فاطر رمضان يا خاسر دينك
كلبتنا السودة تقطع مصارينك

بالنسبة لي شخصيًا لم أكن مهتمًا بكل هذه الطقوس، ولم أكن مشغولًا إلا بفقرة المسحراتي اليومية، لا أعني مسحراتي حداد وسيد مكاوي، وإنما مسحراتي قريتنا «الشيخ محمد» ..

يمر الشيخ عند السحور وهو يحمل طبلة صغيرة يدق عليها ليوقظ الناس الذين كانوا ينامون بالفعل، وإذا استغرق أحدهم في النوم ولم يسمع طبلة الشيخ محمد فقد يضطر إلي الصوم دون سحور!

كنت ـ لسبب لا أعلمه حتي الآن ـ حريصًا علي مشاهدة الشيخ محمد كل ليلة، قبل أن أنام آخذ من أفراد الأسرة عهدًا وميثاقًا علي أن يوقظني أحدهم عند السحور رغم أني لم أكن قد بدأت الصوم بعد، ولأن أختي الكبري طيبة القلب، كانت حريصة علي تنفيذ عهدها معي كل ليلة، توقظني في الموعد فأستجيب بعد جهد وعناء كبير

من جانبها، وأقوم وأنا نصف نائم، فتتولي هي سحبي ـ مثلما تسحب شخصًا كفيفًا ـ إلي الشرفة، أنظر منها وأملأ عينيَّ من الشيخ محمد وطبلته..

ومع تكرار التجربة طوال شهر رمضان، ولعدة أعوام، رسخ في ذهني أن الشيخ محمد ليس بشرًا مثلنا، ليس مجرد رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، بل هو طيف يهبط من السماء، أو مخلوق عجيب يمتلك قدرات خارقة، وهل يمكن لبشر مثلنا أن يقطع القرية من شرقها لغربها في هذا الظلام الدامس دون أن يخاف؟، وإذا تجاوزنا معجزة سيره في الظلام دون أن يهتز له جفن، فكيف نجد تفسيرًا منطقيًا لعدم خوفه من هذا العدد الهائل من الكلاب التي تطارده وهي تنبح بشكل كفيل بأن يبث الرعب في نفس أي شخص عادي مثلنا؟ هل أحتاج إلي أدلة أخري أعظم من ذلك لكي أتأكد من أن المسحراتي ليس بشرًا مثلنا؟!

ورغم أن الشيخ محمد لم يكن المسحراتي الوحيد في قريتنا، بل كان هناك شخص آخر ـ لا أذكر اسمه ـ كان يمر قبله وهو يدق علي طبلة كبيرة يعلقها بحبل في رقبته، إلا أنني لم أفكر يومًا في متابعته، بل وشعرت بأنه مجرد طبال أو شخص تافه يستجدي الناس ليعطوه رغيفًا أو بضعة قروش، علي عكس حالة التبجيل والتقديس التي كنت أكنها للشيخ محمد، فأستيقظ يوميًا لأشاهده دقائق معدودة

وهو يسير مسرعًا بطبلته أسفل بيتنا وخلفه فريق الكلاب المفزع، لم أستطع أبدًا تحديد ملامحه، ولم يتبقَ في ذاكرتي من صورته سوي جسده النحيف، وعمامته، وطبلته الصغيرة، وربما كان عدم وضوح ملامحه في الظلام أحد الأسباب التي جعلتني أضعه في مرتبة أعلي من أبناء آدم!

مرت الأيام وكنت خارجًا من منزلنا لأجد مع أبي ضيفًا، وبدافع الفضول سألت شقيقي الأكبر عن اسم الضيف، فرد ببساطة إنه الشيخ محمد المسحراتي، وقفت مشدوهًا أنظر للرجل، يتحدث مثلنا، يشرب الشاي، يدخن، يضحك..

هو بشر إذن؟

لا أذكر حاليًا إن كنت قد عاتبت نفسي أو عاقبتها علي هذا الخيال المفرط أم لا، ولا أعرف إن كنت قد خلصت بدروس مستفادة من قصتي مع المسحراتي الذي يهبط من السماء أم أنني اعتبرت الموضوع مجرد سوء فهم استمر معي لسنوات، والحقيقة أنه كان لابد لي من وقفة حاسمة مع نفسي بمجرد أن رأيت ملاكي الذي كنت أصحو من نومي لأستمتع برؤيته، مجرد رجل عادي يضحك ويدخن ويشرب الشاي مع أبي، ومن وقع الصدمة لم أفكر حتي في مصافحته أو إلقاء التحية عليه، لا أستطيع أن أحدد الآن موقفي من نفسي ساعتها، لكن الأرجح أنني لم أقف هذه الوقفة الحاسمة معها، لأن

مواقف مشابهة تكررت فيما بعد تؤكد أن داء الخيال المفرط كان ينمو معي كل يوم!

وكعادتي لم أصارح أحدًا وقتها بخيالاتي الغريبة عن الرجل، كتمتُ القصة ولم أُبِح بها، تمامًا مثلما فعلت مع أزمة «بطة الحضانة»، حتي لا أري في عيونهم نظرة سخرية، أو اتهامًا بالسذاجة، أو تتحول قصتي الطريفة إلي مادة للتسلية في تجمعات أقاربنا وجيراننا، وهل سيجدون أطرف وأعجب من حكاية عم محمد الهابط من السماء لتكون محورًا لسمرهم؟

لاحظ ـ عزيزي القارئ ـ أنني بعد مرور كل هذه السنوات، أنشر قصصي التي كتمتها عن الجميع، في كتاب سوف يقرأه آلاف القراء، وهو ما يعطيك مؤشرًا علي مدي تطور حالتي وأنا أخطو نحو الخمسين!

ـ 4 ـ

أخذت زجاجة ماء وأخفيتها في غرفتي، كان العطش شديدًا لكنني لم أكن أشعر بقسوته لأني سوف أشرب ـ لأول مرة ـ حتي أرتوي..

انطلق أذان المغرب وأنا مازلت في غرفتي، وبمجرد سماعي للأذان، شربت زجاجة المياه دفعة واحدة، كان شعوري بالحرية جميلًا ورائعًا، خرجت ورحت أنظر إلي أفراد أسرتي نظرة قائد عاد لتوه منتصرًا من معركة حربية، جلست معهم لتناول الطعام، ضحكت وأنا أسمع تعليمات أبي لأمي وإخوتي بالحذر من شرب كميات كبيرة من الماء، أنا خارج هذه الدائرة الآن، أنا حر!

من العادي جدًا أن يفطر أحدنا في رمضان علي أطعمة شعبية، فول، طعمية، بيض، عدس ... إلخ، لكن سيكون الأمر صعبًا لو كان هذا هو إفطارك اليومي، بينما يكون سحورك طوال الشهر هو طواجن الخضار باللحم، والأرز، المكرونة، والمحاشي بأنواعها!

لقد بدأت صيام رمضان وفقًا لهذا البرنامج الغذائي، ولك أن تتخيل ما يحدث لطفل يبدأ أداء فريضة الصيام، ويأكل قبل الفجر هذه الأطعمة، مع العلم بأن رمضان وقتها كان يحل في شهر يوليو..

هذا هو عرف قريتنا وقتها، لا أعرف إن كانت محافظات الصعيد الأخري قد عرفت هذه العادة أم لا، والتفسير الذي برروا به هذا النظام وقتها أن الواحد منا يجب أن يأكل أجمل ما لديه من طعام وهو مقبل علي الصيام حتي لا يشعر بالجوع أو الهزلان خلال نهار الصيف الطويل، والمهم في الأمر أنني نتيجة لوجهة النظر تلك، قضيت أيامي الأولي في الصيام مثل كلب يلهث في صحراء شاسعة بحثًا عن قطرة ماء..

حرص أبي ـ رحمه الله ـ علي أن يعلمني الصلاة والصيام في سن

مبكرة، لكنه ـ فيما يبدو ـ لم يكن منتبهًا إلي أنني مازلت طفلًا، له قدرات محدودة علي التحمل، لأن تصرفاته معي كانت تؤكد أنه يتعامل معي بوصفي رجلًا يجب أن أتحمل أي مصاعب دون شكوي أو تذمر..

كان حريصًا علي أن نحافظ علي رجولتنا ـ من وجهة نظره ـ فلا نساير الموضات الغريبة والشاذة، في هذا الوقت كانت موضة ملابس الشباب هي القمصان المشجرة «أفلام السبعينيات نموذجًا»، والبنطلون رجل الفيل «ضيق جدًا من أعلي وواسع جدًا من أسفل» والأحذية ذات الكعب المرتفع، لذلك كان أبي يتدخل في اختيار ملابسنا، بحيث تكون كلاسيكية وقورة، ويمنعنا من عمل قصات الشعر الغريبة..

وقتها ـ كأي طفل ـ كنت أضيق بهذه التصرفات وأعتبرها تسلطًا غير مقبول، وبنفس المنطق تعاملت مع حرص أبي علي ألا نشرب ماءً كثيرًا قبل تناول طعام الإفطار في رمضان، لم تكن سني تسمح بتقييم تحذيره بشكل علمي، ولو فعلت لعرفت أن شرب الماء الكثير عند الإفطار له مضار كثيرة، أقلها أهمية أنه يفقدنا الشهية للطعام بعد أن تمتلئ المعدة بالماء، قلت لنفسي: هل وصل تسلط أبي إلي حد التدخل في كمية الماء التي أحتاجها بعد يوم صيام شديد الحرارة؟ ماذا سيحدث يعني لو شربت ما أريد؟

ومع تكرار الأزمة بشكل يومي حسمت أمري، بقيت في غرفتي حتي اقترب موعد الإفطار، وبينما هم منشغلون عني، أخذت زجاجة ماء وأخفيتها في غرفتي، كان العطش شديدًا لكنني لم أكن أشعر بقسوته لأني سوف أشرب ـ لأول مرة ـ حتي أرتوي..

انطلق أذان المغرب وأنا مازلت في غرفتي، وبمجرد سماعي للأذان، شربت زجاجة المياه دفعة واحدة، كان شعوري بالحرية جميلًا ورائعًا، خرجت ورحت أنظر إلي أفراد أسرتي نظرة قائد عاد لتوه منتصرًا من معركة حربية، جلست معهم لتناول الطعام، ضحكت وأنا أسمع تعليمات أبي لأمي وإخوتي بالحذر من شرب كميات كبيرة من الماء، أنا خارج هذه الدائرة الآن، أنا حر!

حاولت تناول الطعام، لكنني فشلت تمامًا، امتلأت معدتي بالماء ولم يعد فيها موضع لشيء آخر، شعرت بالارتباك، شعور بالإرهاق الشديد يسيطر عليَّ، حاولت التصرف بشكل طبيعي وإيهام الجميع بأنني أتناول الطعام حتي لا يلاحظوا شيئًا، بعدها قمت منسحبًا إلي غرفتي، وبعد أقل من ساعة كانت حرارة جسدي تقترب من الأربعين، اضطربت الأسرة واستدعت الطبيب إلي المنزل، ولحسن الحظ أنه لم يحدد سبب مرضي علي وجه الدقة ولم ينكشف أمري!

***

في نهار رمضان أيضًا، اصطحبني أبي معه في رحلة من قريتنا إلي مدينة ملوي التي تبعد عن القرية بنحو 45 كيلو مترًا سنقطعها ذهابًا وعودة بمواصلات كانت وقتها في غاية السوء، مما يجعل السفر قطعة من العذاب، لا أذكر الآن سبب هذه الرحلة، ولا أجد في الحقيقة سببًا وجيهًا لاصطحاب طفل صائم، في نهار رمضان لسفر كهذا، والعودة في نفس اليوم، في حر شهر يوليو!

كل ما أذكره هو مشهد أبي ممسكًا بيدي، نسير في شوارع مدينة ملوي لهدف ما، وأنا غارق في عرقي، لا أجرؤ علي التذمر، ليس خوفًا منه، ولكن حتي لا أبدو مجرد طفل ضعيف في عيون أب يراني رجلًا راشدًا!

واصلنا السير والعطش يكاد يقتلني، حتي سمعنا أذان الظهر في مسجد قريب، رحبت جدًا بقرار أبي بدخول المسجد للصلاة لألتقط أنفاسي، دخلنا، كان هو متوضئًا وأشار لي إلي مكان الوضوء، رحت أغمر وجهي ورأسي بالماء، وفي لحظة خطرت لي فكرة سرعان ما طردتها من رأسي:

لماذا لا أفطر؟

أنا غير قادر علي تحمل الصيام في هذا الجو القائظ، وأبي لن يعرف أبدًا، بل ربما يساعدني الإفطار علي تحمل مشاق هذا اليوم الصعب، دون أن أبدو مرهقًا وهزيلًا، مما يرفع مكانتي في نظره

وأثبت له أنني علي قدر المسئولية!

ترددت طويلًا حتي سمعت الإمام يقيم الصلاة، نظرت حولي فوجدت نفسي وحيدًا، ملأت كفي بالماء ورحت أشرب حتي ارتويت، ثم توضأت لألحق بصلاة الجماعة!

بعد انتهاء الصلاة سيطر عليّ حزن غريب، رحت ألوم نفسي علي فعلتي، وتساءلت خائفًا: هل يقبل الله صلاتي بعد أن ارتكبت جريمة الإفطار العمد في نهار رمضان؟ وإذا سامحني الله ـ وهذا غير وارد ـ فهل يسامحني أبي علي أنني خدعته ومازلت أخدعه؟ لقد خيبت أمله ولم أكن عند حسن ظنه بي!

ظللت ساعات وأنا أسير معه شاردًا، يحدثني وأنا لا أسمعه لأنني مستغرق في جَلْد ذاتي وتأنيب نفسي، حتي بدأ العطش يغزوني مجددًا، جف حلقي رغم ما شربته من ماء، ساعتها انتهي عذابي وتوقفت عن تأنيب نفسي، وتمنيت لو حلت صلاة العصر سريعًا لنذهب إلي المسجد مرة أخري!

5

رتيبة هي فاكهة ليلة «تقطيع الكشك»، تضحك، وتغني، تلقي النكات، تسأل هذه عن علاقتها الخاصة بزوجها، وتسأل تلك عن ابنها وإن كان قد بلغ مبلغ الرجال ليتزوج أم مازال طفلًا، تشاكس البنات العذاري، وتداعب أحلامهن بزوج المستقبل، وعندما يقترب الفجر تكون «رتيبة» قد حولت الجلسة الهادئة إلي مهرجان للضحك، كنت أراها وهي تتلفت يمينًا وشمالًا لتتأكد من غياب رجال البيت، ثم تأخذ قطعة كبيرة من عجين الكشك في يدها لتنحت منها تماثيل صغيرة بأشكال ذكورية مختلفة، ثم تلقي التماثيل في حجور البنات والسيدات اللاتي يقفزن فزعًا من تصرفها ..

لصناعة «الكشك» موسم، يبدأ مع اشتداد حرارة الصيف، ويبلغ ذروته مع شهر يوليو وأغسطس من كل عام، حيث تستعد كل البيوت في قريتنا لرحلة طويلة تستمر لأكثر من شهر، وتكون نتيجتها صومعة مصنوعة من الطين، مليئة بالكشك لتأكل منه الأسرة طوال العام..

والكشك ـ لمن لا يعرفه ـ هو أكلة صعيدية، تتكون من مادة أساسية هي القمح مع اللبن الحامض!

يبدأ تجهيز القمح مع مطلع الصيف حيث تتم تنقيته من أي شوائب، ثم يحمله الرجال في أجولة علي الحمير إلي حيث حلل السلق الضخمة التي يقيمها أناس هذه هي مهنتهم السنوية، ينصبون الحلل المصنوعة من الصفيح علي أفران مبنية بالطوب اللبن، يذهب العميل حاملًا أجولة القمح فيأخذها صاحب الفرن ويلقيها في الحلل الكبيرة ويقف علي متابعتها وتقليبها حتي تستوي، ثم يخرجها باستخدام مغرفة كبيرة، ويفرشها علي حُصر نظيفة ومعدة لهذا الغرض حتي تبرد، بعد ذلك يعاد وضعها في الأجولة لتحمل إلي البيوت، فيقوم السيدات بفرشها علي السطوح

وتترك أيامًا حتي تجف تمامًا ..

كنت في طفولتي مغرمًا بحضور كل مراحل صناعة الكشك، فأنا أشارك أمي وإخوتي في تنقية القمح، ثم أرافقه وهو ذاهب في رحلته إلي حلل السلق، وأنتظر هناك حتي نعيده إلي المنزل بعد أن يتحول إلي «بليلة»، نأكلها ساخنة ومخلوطة باللبن أو العسل الأسود..

أصحو يوميًا فأذهب إلي السطوح لكي أختبر درجة الجفاف التي وصلت إليها البليلة، فقد كان من المهم أن تتم عملية صنع الكشك في ذروة الصيف، وكان الناس يسخرون ممن يتأخر عن تلك المواعيد المثالية، ويتهمونه بالغباء والفشل، لأن انخفاض درجة حرارة الجو لا يعني تأخر عملية التجفيف فحسب، بل يعرض الكشك ذاته للتسوس، ومن ثم ضياع الأموال التي أنفقت عليه هباء منثورًا!

وقد وصل الاهتمام بصناعة هذه الأكلة ـ التي لا يحبها كثيرون وعندهم حق في ذلك ـ إلي اعتبارها مؤشرًا علي الحالة الاقتصادية للعائلات، فكان من الطبيعي أن تجد أناسًا يتهامسون علي بيت فلان أبو فلان الذي لم يتمكن هذا العام من صناعة الكشك لأن حالته المادية ليست علي ما يرام، ومن هنا ينتشر الغمز واللمز عن فلان وعلان، إلي الدرجة التي كانت تدفع المتعسرين إلي الاستدانة

لعمل «الكشك»، حتي لا يصيروا محورًا لكلام الناس!

بعد جفاف البليلة تمامًا، تبدأ المرحلة الثانية وهي «الدشيشة»، أي تكسير القمح بعد جفافه، فنعود لنحمل الأجولة إلي «المدشة»، ثم نعيدها مرة أخري بعد يوم عمل شاق، كنت أشعر بأهميتي الشديدة وخطورة دوري عندما توصيني أمي بمتابعة العمل بنفسي، وإبلاغ عامل «المدشة» بالحرص علي درجة معينة لا يتجاوزها زيادة أو نقصًا، لأن هناك مستوي مثاليًا لـ«الدشيشة» بين الخشونة والنعومة يجب عدم تجاوزه!

بالتزامن مع ذلك، كان أبي يشتري اللبن الحامض في أجولة من الخيش بداخلها أجولة أخري من قماش التيل الأبيض تحفظ اللبن، وكانت تجارة اللبن الحامض مهنة موسمية لها رجالها، تبدأ مع موسم الصيف وتنتهي مع نهاية صناعة الكشك، وكان الناس يحرصون علي شراء اللبن مبكرًا مع بدء الموسم حتي يضمنوا جودته..

لدينا الآن أجولة من اللبن يتم تفريغها، وتمر بمراحل متعددة من النظافة تبدأ بتصفية اللبن من أي شوائب أو عوالق، ثم إضافة الماء والملح إليه حتي يصبح سائلًا..

أما القمح المجروش «الدشيشة»، فيبدأ السيدات في فرزه وتنقيته باستخدام «الغرابيل والمصافي»، بحيث يعزل الناعم منها تمامًا،

وتبقي الكمية الأكبر والتي يحتفظ السيدات بجزء بسيط منها لاستخدامه في حشو الحمام، وصنع طواجن الفريك والسمك..

يتجمع سيدات البيت استعدادًا للمهمة الجديدة وهي خلط الدشيشة مع اللبن في أواني كبيرة معدة لذلك، وتتم تغطيتها بأغطية ثقيلة، وتركها حتي اليوم التالي لكي تتخمر، ومن هذه المرحلة تخرج المادة الأولية للكشك، ويسمونها «الحَم»، ولا أعرف سر التسمية، لكن ربما لأنها نتاج استحمام القمح المجروش باللبن، فهذا هو التفسير المنطقي الوحيد!

ومثلما تنتج مرحلة «السلق» بليلة بالعسل واللبن، وتنتج مرحلة «الدشيشة» طواجن الفريك، تنتج هذه المرحلة أيضًا أكلة جديدة نتناولها في الصباح كوجبة إفطار هي «الحم بالسمن البلدي والسكر»..

في نفس اليوم، يتواعد الرجال للمرحلة قبل الأخيرة من صناعة الكشك الإستراتيجية، يحضر الجيران والأصدقاء والأقارب بعد صلاة المغرب، «رجال فقط»، ويكون البيت المضيِّف قد أعد لهم عشاء فاخرًا مكونًا من اللحم والخضار، يتناولون طعامهم ويشربون الشاي ثم يجلسون علي شكل نصف دائرة وأمام كل منهم طبق كبير استعدادًا للعمل، ويتولي الصبية ـ وأنا منهم بالطبع ـ إحضار «الحم» ووضعه في الأطباق أمام الرجال، بينما

يتولي أحدنا حمل إناء مليء باللبن الحامض يصب منه لكل رجل في الطبق حسبما يطلب، يتم خلط القمح المتخمر مع اللبن بنسب معينة، تنتج السُمك المطلوب حسب خبرة الرجال، ومع انتهاء كل رجل من عجن الكمية التي أمامه نأخذها ـ نحن الصغار ـ ونضع له كمية جديدة..

كان حضور الرجال إلي بيتنا في ذلك اليوم له طقوس خاصة، حيث كان بيتنا من البيوت القلائل التي تمتلك «الكاسيت»، ومن ثم فهي فرصة للرجال لكي ينجزوا مهمتهم علي أنغام أم كلثوم وعبد الحليم حافظ، وكان بعضهم يرفض سماع الأغاني ويطلب بإصرار سماع القرآن الكريم، أو شرائط الشيخ عبد الحميد كشك، الذي كانت خطبه المسجلة منتشرة بشكل غير مسبوق في تلك الفترة، كان رجلًا خفيف الظل، يكره الفن والفنانين بشكل عام ويسخر منهم، ويمقت جمال عبد الناصر ويراه عدوًّا لله وللإسلام..

ضيوفنا كانوا يحبون الشيخ كشك، وتتعالي ضحكاتهم عندما يقول بصوته الجهوري «طلبنا من الله أن يمنحنا إمامًا عادلًا، فأعطانا عادل إمام»، أو عندما يسخر من الشاعر عبد الرحمن الأبنودي الذي رافقه في سجون عبد الناصر، ويطلق عليه «الواد بتاع وهيبة»، نسبة إلي الأغنية التي اشتهرت للأبنودي في ذلك

الوقت وتقول كلماتها «تحت الشجر يا وهيبة، ياما كلنا برتقان»!

ويمصمص ضيوفنا شفاههم عندما ينطلق الشيخ كشك في وصلة هجوم عنيفة علي أم كلثوم قائلًا: «امرأة في الستين تقف علي المسرح وتقول: «خدني في حنانك خدني، عن الوجود وابعدني»، أو عندما يتعجب من أغنية شادية «غاب القمر يابن عمي يلا روحني» فيصرخ مندهشًا: وأنتي إيه اللي يقعدك مع ابن عمك لغاية القمر ما يغيب يا فاجرة!».

لم أكن أملك وقتها المعرفة أو الثقافة لتقييم آراء الشيخ، وكنت بعفوية وتلقائية أضحك معهم علي نكاته وقفشاته اللاذعة، رغم أنني في الوقت نفسه، كنت أحب أم كلثوم وأسمع أغانيها، لذلك كنت بين الحين والآخر أتذكر كلمات كشك، فأشعر بتأنيب الضمير، لأنني أستمع إلي سيدة في الستين تقف علي المسرح وتقول: «خدني في حنانك خدني، عن الوجود وابعدني»!

عودة إلي الليلة الأخيرة من رحلة صناعة الكشك، حيث يتجمع النساء والبنات، من الأقارب والجيران ـ دون مقابل مادي ـ لوضع نهاية لهذه الرحلة الشاقة، يجلسن علي الأرض في حلقة كبيرة مستديرة، ويبدأن مرحلة «التقطيع»، أي تحويل العجينة التي أنتجها الرجال إلي كرات صغيرة ..

كنت تستطيع بنظرة واحدة أن تصنف الحضور في هذه الليلة

إلي ثلاثة أجيال؛ جيل البنات اللاتي تبدأ أعمارهن من 14 عامًا فما فوق، وجيل الأطفال الأقل من ذلك، وجيل الأمهات صاحبات الخبرة والكلمة المسموعة في أي شيء يخص العمل، والمسموح لهن بتبادل الغمزات والنكات والقفشات الساخنة والحديث بجرأة عن حياتهن الخاصة، ورغم سعادة البنات بهذه الأجواء، إلا أنهن يتظاهرن بالخجل فيكتمن الضحكات، ويخفين وجوههن بطرف الثوب، بينما جيل الأطفال ـ مثلي أنا في ذلك الوقت ـ يكتفي بالفرجة والمشاهدة دون أن يفهم شيئًا!

كانت «رتيبة» نجمة هذه الليالي بلا منافس، هي سيدة تجاوزت الخمسين، تتمتع بخفة ظل فطرية، وجرأة غير معهودة علي نساء الريف، وكاريزما تجعلها في موقع القيادة دائمًا في أي تجمع نسائي..

رتيبة هي فاكهة ليلة «تقطيع الكشك»، تضحك، وتغني، تلقي النكات، تسأل هذه عن علاقتها الخاصة بزوجها، وتسأل تلك عن ابنها وإن كان قد بلغ مبلغ الرجال ليتزوج أم مازال طفلًا، تشاكس البنات العذاري، وتداعب أحلامهن بزوج المستقبل، وعندما يقترب الفجر تكون «رتيبة» قد حولت الجلسة الهادئة إلي مهرجان للضحك، كنت أراها وهي تتلفت يمينًا وشمالًا لتتأكد من غياب رجال البيت، ثم تأخذ قطعة كبيرة من عجين الكشك في يدها لتنحت منها تماثيل صغيرة بأشكال ذكورية

مختلفة، ثم تلقي التماثيل في حجور البنات والسيدات اللاتي يقفزن فزعًا من تصرفها، تعلو أصواتهن بالإدانة والرفض لهذه التصرفات الفاجرة، وتتعالي الضحكات، والغمزات، ويخفي البنات الصغيرات وجوههن خجلًا، وتزيد إحداهن علي ذلك بأن تقوم مهددة بالانصراف احتجاجًا علي «قلة أدب رتيبة»، لكنها تعود بعد تدخل حاسم من سيدة كبيرة وحكيمة تؤنب رتيبة وتأمرها بالتوقف عما تفعله. تجلس السيدة الحكيمة فرحة بانتصارها، وبعد دقائق تقفز من مكانها صارخة بعد غمزة محترفة من يد رتيبة، وتنفجر الضحكات مرة أخري، حتي تحضر أمي لتقتحم المكان وتلقي علي رتيبة محاضرة عن العيب والأصول، وتحذرها من أن صوتها قد يصل إلي مسامع أبي وأعمامي، وتقديرًا لأمي يصمت الجميع، وتقسم رتيبة علي أنها تفعل ما تفعل حتي لا ينام النسوة دون أن يكملن تقطيع الكشك، وتواصل بخفة ظلها الفطرية حديثها حتي تضحك أمي ومعها كل الحاضرات!

يتواصل العمل الدؤوب، وتستمر الضحكات والغمزات، لا تتوقف رتيبة عن بث البهجة والفرحة في المكان، ولا يتوقف النسوة عن الاحتجاج علي سلوكها، في نفس الوقت تكون سطوح البيت قد استعدت لاستقبال الكشك في صورته النهائية، حيث يتم رص الكرات الصغيرة بعناية علي مفارش كبيرة ونظيفة أعدت

لهذا الغرض، لتطلع عليها شمس اليوم الجديد، وطوال أسبوع يتولي سيدات البيت «تقليب» الكشك، بحيث تطاله الشمس من جميع جوانبه، حتي يصل إلي مرحلة الجفاف التام..

قد تسألني: هل تستحق هذه الأكلة كل هذا العناء؟!

أو تردد ما قالته ابنتي سماح عندما قرأت هذا الفصل: مش ممكن يطلبوا كشك «ديلفري» بدل التعب ده كله؟!

وأجيب: كان أهلنا ومازالوا يخافون الفقر، ويحاولون قدر استطاعتهم تدبير حياتهم بحيث يكون طعام الأسرة في أغلبه من إنتاجها، في الريف كانوا يشربون اللبن الذي يحلبونه بأيديهم، ويأكلون الجبن الذي يصنعونه من هذا اللبن، حظيرة الدجاج كانت في ذلك الوقت أهم من غرفة النوم في بيوتهم، تنتج لهم البيض، ولا مانع من ذبح دجاجة أو اثنتين كل أسبوع، وبيع الباقي ليدر دخلًا نقديًا للأسرة..

بهذا المنطق ندرك أهمية وجبة «الكشك»، ولا نندهش من المجهود الجبار الذي يُبذل لصناعته، فهو وجبة الإفطار الرئيسية لكل بيوت قريتنا، وهو رصيد إستراتيجي لأي يوم تعجز الأسرة عن تدبير طعامها فتتناوله أيضًا كغداء أو عشاء، يأكلونه مع الشاي، ويخلطونه باللبن أو العسل، أو يضعونه مع البيض المقلي، بل ويطبخونه مع الدجاج، ويطلقون تشبيه «فرخة بكشك» علي

العلاقة المتينة التي تربط بين شخصين، فيقولون في المثل الشهير «فلان بقي عند علان فرخة بكشك»!

ربما تكون تلك الأوضاع قد تغيرت الآن ـ وهذا هو الأرجح ـ لكن وقتما كنت طفلًا كانت قريتي كلها تدبر حياتها بنفس المنهج، حتي الأغنياء من أهلها كانوا يحرصون علي تلك الطقوس، كانت هناك عادات ثلاث تميز الطبقة العليا والوسطي من أهل قريتي، وتعتبر ـ كما أشرت من قبل ـ دلالة لا تقبل الشك علي المستوي المادي لأي أسرة من هاتين الطبقتين، الأولي هي الذبح في عيد الأضحي، والثانية هي عمل الكعك والبسكويت في عيد الفطر، والثالثة هي صناعة الكشك، وكان الناس أكثر اهتمامًا بالثالثة، فمن الوارد ألا تذبح الأسرة أضحية العيد، ومن الجائز ألا تخبز الأسرة كعك العيد، لكن الناس لا تتسامح مع عجز الأسرة عن صناعة الكشك، وهذا ما يدهشني حتي الآن!

أما أبناء الطبقة الدنيا فكانوا أكثر حرصًا علي توفير الكشك لبيوتهم لأنهم الأكثر فقرًا واحتياجًا، بعضهم كان يشارك بيوت الطبقتين الوسطي والعليا في مراحل صناعة الكشك، ثم يحصل منهم ـ بمبادرة منهم ودون أن يطلب ـ علي كمية صغيرة لعياله، والبعض الآخر كان يصنع كميات قليلة من الكشك بنفسه، ولأن بيوت هؤلاء صغيرة وغير مؤهلة لكل مراحل الصناعة،

كنت أراهم ـ صغيرًا ـ في ساحة واسعة بمدخل قريتنا، يتجمعون في العراء فيما يشبه المعسكر، ويصنعون الكشك ويبيتون بجانبه، حتي يجفَّ فيحملوه إلي بيوتهم وقد اطمأنوا إلي خزين العام..

قد تختلف مظاهر الحياة من طبقة اجتماعية إلي أخري، لكن كان العظيم في الأمر، أن الحياة كانت أبسط كثيرًا، كان جميع أبناء قريتي ـ علي اختلاف مستوياتهم ـ يأكلون طعامًا واحدًا، وكان الواحد منهم لو امتلك بقرة، وحظيرة دجاج، وفي بيته صومعة مليئة بالكشك، فكأنما امتلك الدنيا وما فيها!

6

لا أعرف لماذا كنت في طفولتي مغرمًا بسماع «العديد»، صحيح أنني لم أكن أفهم معانيه بشكل دقيق وواضح، لكنني كنت أستمتع بحالة الشجن التي يبثها في نفسي، عندما يموت أحد أقاربنا، أتسلل إلي حيث عزاء السيدات، أقف منصتًا لرتيبة وزميلاتها النائحات، أسمعهن وأبكي، أبكي كثيرًا، أحيانًا أتذكر الموتي من أعمامي وأخوالي، وأحيانًا أخري أبكي بلا سبب!

رتيبة!

نعم، السيدة الخمسينية التي رأيتها في الفصل السابق وهي تضحك، وتغني، وتلقي النكات والقفشات، تداعب هذه، وتغمز تلك، تسخر من نساء جيلها اللاتي تسلل الشيب إلي رءوسهن، وتقتحم حواجز فتيات في عمر الزهور يتظاهرن بالخجل، بينما هن في الحقيقة حضرن ليسمعن، ويتخيلن، وينصتن إلي نكات رتيبة، وهن يحلمن بحضن الزوج والحبيب، رتيبة هي نفسها، تراها إنسانة أخري تمامًا، عندما يموت واحد من أهل القرية فتأتي للعزاء، ومثلما كانت نجمة في مهرجان الضحك، تكون أيضًا القائدة بحضورها الطاغى، يوم الحزن!

كانت واحدة من سيدات قلائل في قريتنا يحفظن «العديد»، وهو لمن لا يعرفه أشعار متوارثة، تقطر حزنًا، بعضها ينعي الميت ويبكي لفقده، وبعضها الآخر يعدد مميزات الميت ويعرض مناقبه وأفضاله..

كنت ـ لا أعرف لماذا ـ مغرمًا في طفولتي بسماع العديد، صحيح أنني لم أكن أفهم معانيه بشكل دقيق وواضح، لكنني كنت أستمتع بحالة الشجن التي يبثها في نفسي، عندما يموت أحد أقاربنا،

أتسلل إلي حيث عزاء السيدات، أقف منصتًا لرتيبة وزميلاتها النائحات، أسمعهن وأبكي، أبكي كثيرًا، أحيانًا أتذكر الموتي من أعمامي وأخوالي، وأحيانًا أخري أبكي بلا سبب!

وقد حاولت أن أستدعي من الذاكرة نصوصًا من العديد لكنني فشلت، فعدت إلي كتاب أستاذي وصديقي الشاعر درويش الأسيوطي «أشكال العديد في صعيد مصر» وغيره من المراجع التي اهتمت بهذه الظاهرة، لأجد فيه عشرات من نصوص العديد التي كنت أسمع بعضها ـ صغيرًا ـ ترددده رتيبة وزميلاتها النائحات..

جابوا الجديد.. ما تقوم يا نايم
لبس الجديد.. يغيبك دايم
جابوا الجديد.. ما تقوم يا نعسان
لبس الجديد.. يغيبك لزمان

«المقصود بالجديد هو الكفن، والخطاب هنا للميت، ومعناه أن ينتبه، ولا يفرح بالملبس الجديد كعادته لأنه سيغيبه عن الدنيا»

ياسيدي لما مال وراني
حدف العميمة مالفها تاني «العميمة هي العمامة»
يا سيدي لما مال ما اتكلم
حدف العميمة ما عاد يتعمم

لم يكن كل النساء يعددن، بل واحدة أو اثنتان علي الأكثر من الحافظات يرددن العدودة بنغمة واحدة حزينة، وما إن ينتهين من عدودة حتي ينطلق باقي النساء في الصراخ، صراخ يهز أركان الروح، ويضرب القلب بعنف، بعضهن لم يكن بكائه علي الميت الذي حضرن للعزاء فيه، قالت لي أمي إن كل امرأة منهن تبكي علي وجيعتها، من فقدت زوجها، من رحل عنها الأب والأم وصارت يتيمة مستضعفة، من فقدت ابنها أو ابنتها، من لم يخطف الموت واحدًا من أحبائها بعد، لكنها موجوعة من المرض، أو الفقر، أو قسوة الزوج وخيانته!

أنا كنت جلعانة «مدلعة» وست الكل
وصبحت ندمانة وشاربة المر
أنا كنت جلعانة وست حريم
صبحت ندمانة وشايلة الطين

كثيرًا ما كنت أسمع جدتي «تعدد» وهي وحيدة، دون أن يكون هناك ميت أو عزاء، كان العديد هو الوسيلة لممارسة حزنهن الشفاف، وتذكر الأيام الجميلة التي راحت دون رجعة، أو معاتبة الزمن علي قسوته وظلمه!

وكانت هناك نساء هذه مهنتهن، فقد عرف الصعيد لسنوات طويلة مهنة «الندابة»، التي تُستدعي للعديد والندب ولطم الخدود

في العزاء مقابل أجر، ولكل ميت العديد الذي يناسبه، فهذا شاب صغير رحل في مقتبل العمر، وهذا كبير عائلة مات ولن يجدوا من يملأ فراغه، وهذه عروس ماتت بعد زفافها، وذاك طفل صغير حرق رحيله قلب أمه وأبيه، أو شيخ مصلي ومتدين:

طريق الجوامع تبكي عليه وتنوح
فين المصلى اللي ييجي ويروح
طريق الجوامع تبكي عليه ديمة «دائمًا»
فين المصلى صاحب القيمة؟

كنت عندما أتسلل لمشاهدة عزاء السيدات أو سماع العديد، أري علي وجه كل منهن قصة حزن غامضة، الشرود هو سيد الموقف، الغالبية منهن شاردات، دموعهن تنساب مع العديد أو الصراخ وكأنها تفيض رغمًا عنهن، الجميع ينصتن إلي المعددة، وعندما تنتهي من وصلتها ينطلق الصراخ ليهز المكان ويخيف طفلًا مثلي، تمر لحظات تقوم بعدها إحدي السيدات الحكيمات وهي توجه حديثها إلي رتيبة أو إحدي زميلاتها النائحات:

ـ كفاية يا رتيبة، حرام عليكي، قلوبنا مش ناقصة

وفجأة تقفز سيدة من مكانها فزعة وكأن ثعبانًا قد لدغها، تقف في وسط القاعة وتلطم وجهها، تلطمه بقوة وعنف وهي تصرخ بهستيرية، لتقطع الطريق علي السيدة الحكيمة التي تحاول إسكات

رتيبة، يهز المشهد قلوب النساء مجددًا، فيبدأن في البكاء، وتنتهز رتيبة الفرصة لتبدأ وصلة جديدة من العديد!

كنت ببراءتي أيامها أندهش من هذه التي أشعلت العزاء بعد أن هدأ أو كاد يهدأ، أدقق النظر في وجهها لكي أتعرف عليها، معتقدًا أنها قريبة مقربة من الفقيد الراحل، لكنني أصطدم بحقيقة أنها غريبة عنه، مجرد جارة، أو صديقة لأسرته، وهنا أتذكر كلمات أمي عن أن المآتم هي جلسات للوجع، كل من فيها يبكي علي ليلاه، والفقيد الراحل لا علاقة له بالأمر!

ووسط كل هذا البكاء والعويل، كنت أري نسوة صامتات، يكتفين بدموع قليلة يمسحنها بالمناديل، هؤلاء كانوا دائمًا عرضة للقيل والقال، فإن كن من أهل الميت، صار الغمز واللمز علي عدم تأثرهن، وقسوة قلوبهن، وقد يتطور الأمر إلي اتهامهن بالخسة وقلة الأصل، فكيف تكتفي زوجة أصيلة فقدت رجلها ـ مثلًا ـ ببعض الدموع؟، أو كيف لا تلطم وجهها من راح أبوها أو شقيقها قتيلًا في جريمة ثأر؟

أما إن كانت «امرأة المنديل» من غير أهل الميت وجاءت للعزاء، فهي لم تؤدِ ما عليها من واجب مستحق الأداء، زوجة الميت وبناته وشقيقاته ذهبن إليها في أكثر من مناسبة مشابهة، فبكين حتي تورمت عيونهن، فكيف تأتي هي متسلحة بمنديل تتظاهر بأنها

تمسح به دموعًا لا يراها أهل الفقيد؟ وكيف لا ترد جميلهم معها عندما كان الحزن في بيتها؟

المدهش في الأمر بالنسبة لي هو رتيبة، مصدر البهجة والضحك في ليالي الفرحة، ومفجرة الوجع في جلسات الحزن، كيف كانت تحافظ علي ريادتها، في الحالتين؟!

كانت رتيبة ـ مثل كثير من أهلنا البسطاء ـ تشرب من الضحك حتي ترتوي، عندما يأتي أوان الفرحة، وتحزن بصدق فتُبكي كل من حولها حينما تنزل الفجيعة، أو يحل الحزن، وهكذا هي الحياة، لحظات من الفرحة تنعش نفوسنا، ولحظات من الحزن تطهر قلوبنا!

7

عشت المرحلة التي عاشها كل أبناء جيلي، مرحلة محاكاة الميكروفون، نحضر كوبًا من الألمونيوم «كوز»، ونربطه بحبل، ثم نتحدث فيه لنستمتع بصدي صوتنا، وبعد فترة طورنا الفكرة، أصبحنا نحضر بالونة، ونثبتها فوق فوهة الكوب بحيث تكون مشدودة، وعندما تصطدم أصواتنا بها يصبح الصدي أعلي وأجمل، لكن في النهاية تظل حقيقة أن هذا مجرد «كوز مربوط بحبل»، فترنو عيوننا إلي «المايك» في يد الشيخ، نشتهيه ونحلم بسماع صوتنا من خلاله، ومن هنا قررت خوض المغامرة!

من عزاء السيدات إلي عزاء الرجال، الأمر مختلف، لدي رجال قريتنا لا مكان للدموع، أو البكاء والنحيب، مهما كانت قيمة الفقيد الراحل ومكانته في القلوب، دموع الرجل الصعيدي محبوسة في كهف عميق لا تخرج منه أبدًا، فهي ضعف لا يليق إلا بالنساء، أما رجالنا فيجب أن يظلوا علي صلابتهم، وغلظتهم، وقسوة قلوبهم، ويكفي الرجل الصعيدي لكي يعبر عن حزنه أن يمتنع عن حلاقة لحيته، وفي فترات أقدم كان الرجال يمتنعون عن الاستحمام لمدة أربعين يومًا هي فترة الحداد!

تُري هل كان الرجال يفرجون عن دموعهم في الغرف المغلقة؟، أم أن المقاومة الطويلة للبكاء جففت خلايا الدمع في عيونهم؟، هل يمكن أن يعيش إنسان عمره كله دون أن يبكي أبدًا؟!

في سرادق كبير يقام عزاء الرجال ثلاثة أيام، أو في ديوان ملحق بالبيت ومخصص لهذه المناسبات لدي بعض العائلات، ويتولي اثنان من المقرئين تلاوة القرآن بالتبادل بينهما طوال الأيام الثلاثة، أما واجب الضيافة للمعزين فهو القهوة السادة والسجائر، التي كنا ونحن أطفال نستغل الكميات الكبيرة المتوافرة منها فنسرق

سيجارة أو اثنتين دون أن يشعر بنا أحد!

مشغول أنا في كل ذلك بشيء واحد هو «الميكروفون»، اختراع عجيب ومبهر، يكفي أن تهمس فقط لكي يسمعك أهل القرية كلها، سبحان الله!

عشت المرحلة التي عاشها كل أبناء جيلي، مرحلة محاكاة الميكروفون، نحضر كوبًا من الألمونيوم «كوز»، ونربطه بحبل، ثم نتحدث فيه لنستمتع بصدي صوتنا، وبعد فترة طورنا الفكرة، نحضر بالونة، ونثبتها فوق فوهة الكوب بحيث تكون مشدودة، وعندما تصطدم أصواتنا بها يصبح الصدي أعلي وأجمل، لكن في النهاية تظل حقيقة أن هذا مجرد «كوز مربوط بحبل»، فترنو عيوننا إلي «المايك» في يد الشيخ، نشتهيه ونحلم بسماع صوتنا من خلاله، ومن هنا قررت خوض المغامرة!

كان العزاء في الديوان الملحق بمنزلنا، وقد خصصت إحدي غرفه ليجلس فيها المقرئون، دخلت للاستطلاع، ولاحظت أن العامل صاحب الميكروفون يأخذ المايك معه عند انصرافه في المساء، ويحضره في صباح اليوم التالي، كانت صدمة أفسدت خطتي وشعرت كأنه يعلم بما أنتويه ويحاول عرقلتي، لكنني لم أفقد الأمل، تابعته في الأيام الثلاثة، وشاء القدر في اليوم الأخير أن ينصرف العامل مبكرًا ويترك المايك في مكانه، وكم كانت فرحتي

وأنا أعرف أنني علي بعد خطوات من تحقيق حلمي، استيقظت في اليوم التالي مبكرًا، تسللت إلي الغرفة وأمسكت بالمايك مرتعشًا، فتحت زر الكهرباء، نفخت في المايك فسمعت صوت أنفاسي ضخمًا، لكنني لم أجد ما أقوله، مرت دقائق وأنا أفكر في أي جملة أقولها، هل يمكن أن تضيع الفرصة لأن كل تفكيري كان منصبًا حول الحصول علي الميكروفون بينما لم أجهز جملة مفيدة أقولها عندما يتحقق الحلم؟!

أخيرًا رحت أتمتم بصوت منخفض:

آلو .... آلو ....

ثم تشجعت وارتفع صوتي قائلًا:

بسم الله الرحمن الرحيم ... بسم الله الرحمن الرحيم

الله .... صوتي يملأ الكون كله، مرت دقائق وأنا مستسلم لهذا الإحساس الرائع، ثم اقتحمني هاجس أصابني بالرعب، لابد أن أبي وأعمامي وكل أبناء عائلتنا قد سمعوني وهم يهرولون الآن نحو الغرفة لضبطي، لحظات ويمتلئ المكان بهم، وقد ينضم إليهم العامل صاحب الميكروفون فيتهمني بإفساده، أغلقت زر الكهرباء ووضعت المايك في مكانه ثم انطلقت جريًا أبحث عن مكان اختبئ فيه، اختفيت عن عيون الجميع، حتي بدأ العزاء، وسمعت صوت المقرئ يتلو القرآن، خرجت لأستطلع الأمر،

رآني أبي فنظر إليَّ دون أن يبدو علي ملامحه أي شيء غريب، لم أجد نظرة اتهام أو لوم من أحد، بل لم أسمع في أحاديثهم الجانبية أي ذكر للواقعة، ولم يفاتحني أحد في الأمر نهائيًا!

انشغلت لفترة طويلة بسؤال: هل سمعوني ولم يعلقوا لأن الأمر ليس بالضخامة التي تصورتها؟ أم أن صوتي لم يصل إليهم؟!

كبُر معي حلم الميكروفون حتي، انضممت إلي فريق الإذاعة المدرسية، ألقي الخطب والتعليمات المدرسية، لكن متعتي بالميكروفون كانت أقل كثيرًا، أتحدث مثل الآلة، أردد كلمات وأناشيد يلقنها لي المدرس المشرف علينا، سمعت صوتي عاليًا لكنني لم أكن مستمتعًا، وكان الميكروفون موضوعًا في دولاب أمام فصلي، وخلال الحصص أسترق النظر إليه من النافذة، حتي اهتديت إلي فكرة جديدة، الأذان في أوقات الصلاة!

كان المدرس سعيدًا جدًا وأنا أعرض عليه الفكرة، هناك زاوية صغيرة في المدرسة، لكن لا أحد يقيم الصلاة فيها، وأنا جاهز ومستعد، وافق علي الفور وهو يحييني ويربت علي كتفي!

وجاءت اللحظة التي انتظرتها، حان موعد صلاة الظهر، رفعت يدي مستئذنا من مدرسي، فأشار لي بالموافقة وفي عينيه نظرة احترام وإكبار، خرجت لأمسك بالمايك، لكن هذه المرة تملؤني الثقة بنفسي، رفعت الأذان بصوت اجتهدت ليكون رخيمًا..

كان حدثًا عظيمًا، أبدي كل المدرسين سعادتهم بمبادرتي، كان مدير المدرسة فرحًا بي، تطوع أحد المدرسين ليؤمنا أنا وبعض التلاميذ في الصلاة، وبعد عدة أيام كنت أتولى الإمامة إن لم يكن أحد المدرسين حاضرًا، اشتهرت وذاع اسمي في المدرسة بصفتي إمام المسجد، اختلفت نظرات زملائي إليّ، حقق لي الميكروفون مكانة لم أكن أحلم بها، وتحولت من خلاله إلي شخصية عامة!

بداخلي كان الصراع يحتدم، هل مقيم الشعائر ومؤذن المدرسة مؤمن حقًا؟ تقي وورع مثلما يعتقد الجميع؟ أم أنه عشق الميكروفون وتحقيق حلم الطفولة القديم الذي جاءت فرصته الوحيدة ـ مصادفة ـ في زاوية المدرسة وعلي سجادة الصلاة؟!

في أيام كثيرة كنت أؤم المصلين من زملائي في صلاة الظهر، ثم أحاول الانتظام في أداء بقية فرائض اليوم فأفشل، وسعيًا لحل يريح ضميري ويرحمني من هذا الصراع قررت أن أبدأ يومي بصلاة الفجر في المسجد، ونجحت بالفعل في الانتظام، لكن هذا لم يمنعني من تطوير علاقتي بالميكروفون كلما حانت الفرصة، فكنت أذهب للمسجد مبكرًا عن موعد الصلاة، وأظل متابعًا لعقارب الساعة حتي يحين موعد الأذان، ولو تأخر مؤذن المسجد دقيقة واحدة، كنت أهرول إلي حيث الميكروفون، أؤذن للصلاة، وأتذوق طعمًا جديدًا لصوتي وهو يوقظ ـ هذه المرة ـ النائمين

الساهين عن الفريضة، فرق كبير بين أن تؤذن لمجتمع من «العيال» في المدرسة، وأن يوقظ صوتك رجالًا كبارًا ما إن يسمعوك حتي يهرولوا إلي المسجد!

لا أذكر كم استمرت علاقتي بالميكروفون، لكن ما أذكره جيدًا أن انتظامي في الصلاة كان يرتبط صعودًا وهبوطًا بوجود الميكروفون، وهذا هو المؤسف في الأمر!

8

يدخل عم سيد الحاوي إلي الغرفة، يردد كلمات لا أذكر منها غير عبارة «مدد يا رفاعي مدد»، ويظل يتلو «العزيمة» ويتحرك في جميع أركان الغرفة، ثم يلتفت إلي أبي قائلًا «مفيش حاجة هنا»، ثم يخرج وأنا أتبعه..

يدخل غرفة أخري ويكرر الأمر، يتلو ويتلو، ويطلب المدد من الرفاعي مرات ومرات، حتي نسمع صوت صفير، من أحد أركان الغرفة، تدق قلوبنا بعنف، ويشمر عم سيد أكمام جلبابه تأهبًا للمواجهة، يتتبع مصدر الصفير، غالبًا خلف دولاب قديم، أو في ثنايا بعض الكراكيب التي تمتلئ بها بيوت الريف، يدفعني الفضول لمزيد من الاقتراب لمشاهدة لحظة القبض علي الثعبان، فيلتفت عم سيد خلفه وهو يقول لي ولكل الموجودين محذرًا بلهجة حادة «اوعوا وشكم»..

الثعابين ..

كائنات عادية في القري، يتعايش الناس معها، أهل الريف يكنون احترامًا خاصًا للثعبان، وكراهية شديدة واحتقارًا للعقارب، منطقهم في ذلك أن الثعبان بطبعه ليس خائنًا، يلدغ فقط من يحاول قتله، بينما العقرب خائنة، تتسلل إلي ضحيتها وتلدغها حتي إن لم تقترب منها بأذي..

كثير من أهل الريف ـ أطفالًا أو كبارًا ـ ماتوا بسبب لدغة عقرب خائنة، ومن بين الموضوعات الموسمية في الصحف المصرية، تحقيق صحفي ينشر مع قدوم الصيف عن عدم وجود «مصل العقرب» في الوحدات الصحية بالقري، وأذكر أن واحدًا من أقاربي كان يمتلك خاتمًا عجيبًا، أظنه يعود لعصور الفراعنة، الخاتم به فص يمتص سم العقرب من مكان اللدغة، كان الرجل ـ رحمة الله عليه ـ بمجرد حلول الصيف يستقبل الناس طوال الليل، يحضرون طلبًا للخاتم السحري لأن شخصًا ما لدغته عقرب، فيعطيه علي سبيل الصدقة، لواحد منهم يأتمنه عليه، يضعون فص الخاتم فوق اللدغة فيخرج منها السم، شاهدت ذلك بنفسي، ولا

أملك له تفسيرًا علميًا!

كان من الأمور العادية أن أصادف في طريقي ثعبانًا، أسفل قدميَّ، أو علي الجدار، أو في سقف الغرفة، وفي بعض الأحيان كنت أري ما يسمونه «ثوب الثعبان»، وهو غشاء رقيق جدًّا بنفس شكل جسم الثعبان، وكأنه بالفعل ثوب يخلعه تأثرًا بحرارة الصيف الشديدة، وكانت جدتي توصينا ونحن صغار إذا رأينا ثعبانًا ألا ننطق اسمه، وعلينا لو حدث أن نستغيث قائلين «حبل .. حبل»، لأنه لو سمع كلمة ثعبان أو «حنش» سوف يهرب!

الصيف هو موسم نشاط الثعابين التي تخرج من جحورها، وهو أيضًا موسم العمل الرئيسي للعم «سيد الحاوي» أو «سيد بتاع الحنوشة»، كما كنا نسميه، وهو رجل فارع الطويل، يرتدي جلبابًا صعيديًا واسعًا، وعمة فوق رأسه، ويحمل بيده سلة من سعف النخيل لها غطاء محكم، يهبط إلي قريتنا، وبمجرد ظهوره يتخطفه الناس لكي يدخل بيوتهم ويفتش فيها عن الثعابين، فيمسك بها دون خوف ويضعها داخل السلة، ويغلق عليها بحرص..

كنت أنتظر حضور عم سيد بشغف واهتمام، وكان يوم حضوره إلي منزلنا هو بالفعل يومًا للتشويق والإثارة، يدخل كل غرف البيت بصحبة أبي، وأنا أتحرك خلفهما وقد تملكني الفضول، مستمتعًا بأجواء الرعب والترقب..

يدخل عم سيد إلي الغرفة، يردد كلمات لا أذكر منها غير عبارة «مدد يا رفاعي مدد»، ويظل يتلو «العزيمة» ويتحرك في جميع أركان الغرفة، ثم يلتفت إلي أبي قائلًا «مفيش حاجة هنا»، ثم يخرج وأنا أتبعه..

يدخل غرفة أخري ويكرر الأمر، يتلو ويتلو، ويطلب المدد من الرفاعي مرات ومرات، حتي نسمع صوت صفير، من أحد أركان الغرفة، تدق قلوبنا بعنف، ويشمر عم سيد أكمام جلبابه تأهبًا للمواجهة، يتتبع مصدر الصفير، غالبًا خلف دولاب قديم، أو في ثنايا بعض الكراكيب التي تمتلئ بها بيوت الريف، يدفعني الفضول لمزيد من الاقتراب، فيلتفت عم سيد خلفه وهو يقول لي ولكل الموجودين محذرًا بلهجة حادة «اوعوا وشكم»..

يسحبني أبي من يدي بعيدًا خوفًا عليّ، وما هي إلا لحظات ويمد عم سيد يده في مكان ما ويخرجها وقد قبضت علي الثعبان، فيعرضه علي أهل البيت مستعرضًا قدراته، وقد أضاف الخيال الشعبي في قريتنا مزيدًا من الرتوش علي بطولات عم سيد، فأقسم البعض أنهم رأوه بأعينهم وهو يمسك ثعبانًا ضخمًا بيدين خبيرتين، إحداهما تمسك برأس الثعبان من موضع دقيق ليأمن شره، والثانية تخلع أسنانة، حتي يتم مهمته، وبعدها يدخله إلي السلة ويغلق عليه الغطاء، وعلي حسب حجم الثعبان ومدي

خطورته تكون مكافأة عم سيد ..

وقد بحثت في سيرة عم سيد لأجد جوابًا للأسئلة التي كانت تحيرني، وأهمها: كيف لا يفكر الثعبان في لدغه عندما يمسك به؟ ولماذا يرد الثعبان علي العزيمة التي يتمتم بها عم سيد بصوت الصفير الذي يكشف مكان اختبائه؟ وماذا سيحدث لو تجاهلت تحذيرات عم سيد واقتربت أكثر أثناء قيامه بالقبض علي الثعبان؟ هل صحيح كما قيل لي إنه سينفث سمه في وجهي؟

كان سؤالي الأول والأهم عن عدم لدغ الثعبان لعم سيد، وكانت الإجابة أن عم سيد وكل من يعمل في هذه المهنة الخطرة لابد أن يكون محوي «نسبة إلي الحاوي»، أي أنه أحضر ثعبانًا وتركه ليلدغه في منطقة معينة من جسده لا تؤدي إلي موته «غالبًا تكون شحمة الأذن»، ومتي تم ذلك فإنه لا يتأثر بأي لدغات محتملة في المستقبل، وبمنطق علمي هو يطبق نفس فكرة المصل المضاد الذي ينشط مناعة الجسم ضد سم الثعبان، أما عن صفير الثعبان الذي يطلقه ليرشد عم سيد إلي مكانه، وهو تصرف لا يخلو من حماقة، فقد قيل لي إن السبب هو العزيمة التي يتلوها الرجل، والخاصة بالشيخ الرفاعي الذي يطلب منه المدد، حيث لا يستطيع الثعبان مقاومة هذه العزيمة فيصفر علي الفور معلنًا استسلامه لعم سيد..

أما بقية أسئلتي فلم أجد لها إجابة شافية إلا عندما كبرت،

واستطعت أن أتوصل إلي حقيقة الأمر كله، وهي أن عم سيد ما هو إلا دجال مدرب، يهيئ الناس نفسيًا لتقبل كل ما سيفعله، عن طريق بث الخوف في نفوسهم، وفي نفس الوقت يدعم ثقتهم فيه عن طريق العزيمة التي يرددها والتي تجعله يبدو كمن يأمر الثعبان بالاستسلام، وقيل إن الرجل كان يأخذ من السلة التي يحملها معه ثعبانًا يخفيه في كم جلبابه الواسع، ومن الطبيعي أن يكون مدربًا علي ذلك، وأنه هو الذي كان يطلق من فمه صفيرًا، يتوهم المحيطون به أنه صوت الثعبان، خاصة أنه عندما كان يقترب من المرحلة الأخيرة في لعبته لم يكن أحد منا يري وجهه، بل كان يتعمد بث الفزع في قلوبنا عندما يلتفت إلينا ويشيح لنا بيده قائلًا بحدة «اوعوا وشكم»، وعندما نبتعد عنه خوفًا علي أنفسنا، ينتهز الفرصة، وبخفة يد يخرج الثعبان ويعرضه علينا مستمتعًا بنظرات الإعجاب والدهشة في عيوننا..

كثيرًا ما سمعت حكايات من نساء قريتنا عن صولات وجولات سيد بتاع الحنوشة، وكيف أن رحمة الله قد أرسلته في يوم ما، ليخرج ثعبانًا من تحت فراش طفل رضيع أو سيدة مسنة، وعندما يغيب عم سيد عن قريتنا ويطول غيابه، كان الناس يبحثون عنه أو يرسلون في طلبه، حتي لا تتحول قريتنا إلي مرتع للثعابين التي لن تجد من يقتحم أوكارها ومخابئها في غياب عم

سيد!

عاش عم سيد علي هذه المهنة التي لم يكن يعرف غيرها، وانقسم الناس حوله إلي فريقين، الأول ـ وهو الأكثرية ـ مؤمن بموهبته وقدراته، ولا يشعر بالأمان إلا بعد أن يطمئنه عم سيد إلي أن «البيت نضيف مفيهوش حاجة»..

أما الفريق الثاني ـ وهو الأقلية ـ فيعتبره دجالًا كذابًا يستغل جهل الناس ويستثمر خوفهم من الثعابين، ليخطف رزقه من قروشهم القليلة، ورغم أنني في طفولتي كنت من أشد المعجبين بعم سيد وبطولاته، إلا أنني بعد عدة سنوات، اكتشفت أن الأقلية التي اتهمته بالدجل والنصب كانت علي حق، وقدم الزمن ما اعتبره الناس دليلًا علي كذب الرجل، فقد مات عم سيد، قاهر الثعابين، متأثرًا بلدغة ثعبان!

ـ 9 ـ

يختفي القمر، في ظاهرة عرفت فيما بعد أن اسمها العلمي «الخسوف»، وهي ظاهرة فلكية معروفة تحدث عندما يكون القمر بدرًا، ويمر فيما يعرف بمنطقة ظل الأرض، فيصير سطحه معتمًا، لكننا ونحن أطفال، كنا علي يقين من أن القمر محاصر، ولن يعود ليحتل مكانه في السماء، إلا لو خرجنا جميعًا لنقرع الطبول، أو نضرب بالحجارة علي الصفيح، ونحن نهتف بحماس:

يا بنات الحور
صلوا علي الرسول
ده القمر مخنوق

عشت وتعايشت مع أساطير وخرافات كان أهل قريتي يعتبرونها من المسلمات، للكبار أساطيرهم، وللصغار أيضًا، وعلي الجميع الإيمان بهذه الخرافات وإلا كانوا من الخارجين علي النظام العام!

ونحن أطفال كنا ننزعج جدًا عندما يختنق القمر، نعم كنا نؤمن إيمانًا تامًا بأن القمر يختنق، فجأة ننظر إلي السماء فلا نجده، يختفي بفعل عدو ما يحاصره ويحجبه عنا، فنهب لنجدته، ونخرج جميعًا لإغاثته!

يختفي القمر، في ظاهرة عرفت فيما بعد أن اسمها العلمي «الخسوف»، وهي ظاهرة فلكية معروفة تحدث عندما يكون القمر بدرًا، ويمر فيما يعرف بمنطقة ظل الأرض فيصير سطحه معتمًا، لكننا ونحن أطفال، كنا علي يقين من أن القمر محاصر، ولن يعود ليحتل مكانه في السماء، إلا لو خرجنا جميعًا لنقرع الطبول، أو نضرب بالحجارة علي الصفيح، ونحن نهتف بحماس:

يا بنات الحور
صلوا علي الرسول
ده القمر مخنوق

وكلما ارتفع صوت الطبل، وصوت اصطدام الحجر بالصفيح، كلما عجلنا بظهور القمر، ونظل علي هذا الوضع، نطوف الشوارع، ونحن نطالب بنات الحور، بالتدخل، والصلاة علي الرسول، لكي نفك كرب القمر ويظهر من جديد، فتكون فرحتنا عظيمة، نرقص ونهلل، بعد أن عاد القمر ـ بفضل إصرارنا وتدخل بنات الحور ـ ليزين كبد السماء!

***

يؤمن أهلي في الريف إيمانًا مطلقًا بكرامات أولياء الله الصالحين، يتبركون بهم، ويقدمون النذور في أضرحتهم، ويطلبون منهم المدد متي تعرضوا لضائقة أو أزمة، بل ويشركونهم في مناسباتهم وأفراحهم، فهذا رجل يصر علي أن يجري عملية ختان ابنه في ضريح الشيخ الفلاني، وهذه سيدة تذهب لذبح شاة أو خروف في الضريح، لأن صاحب المقام كان له الفضل في إنجاب ابنتها العاقر ..

ومن أشهر أصحاب المقام عندنا شيخ ظهر قبل مولدي بسنوات قليلة، والظهور يعني اكتشاف الناس لكراماته، تقول قصته: إنه كان رجلًا صالحًا، وعندما توفي وأثناء تشييع الجنازة، اكتشف المشيعون أن النعش هو الذي يقود من يحملونه وليس العكس، ووفق الروايات فقد كان النعش خفيفًا مثل ريشة، يوجه

مشيعيه إلي الوجهة التي يريدها، دون أن يملكوا من أمرهم شيئًا!

عرف الناس أن الرجل الطيب قد «ظهر»، فهرول كل من لم يشارك في تشييع جنازته ليلحق بها وينال البركة، أو علي الأقل يُرضي فضوله، ولأن النعش ـ باعتبار أنه يقود المشيعين ـ لم يتوجه كما كان مقررًا له إلي المقابر، بل غير خط سير الجنازة وتوجه نحو أضرحة أولياء الله الموجودة في القرية، انتشر الخبر بشكل سريع بين أهالي القري المجاورة، فهرعوا إلي قريتنا رجالًا ونساء، حكت لي أمي أن الشيخ استمر علي خطته ثلاثة أيام متواصلة، يخرج الناس صباحًا وهم يحملون النعش، ويسلمون أمرهم للشيخ المسجي داخله، يقودهم إلي حيث يشاء، متبوعًا بالمئات من الرجال الذين تركوا أعمالهم وتفرغوا لهذا الأمر، يتبعون النعش أينما ذهب، وهم يطلقون الرصاص ابتهاجًا وفرحًا، والنساء اللاتي يصحبن أطفالهن ويطلقن الزغاريد كلما حط النعش الرحال عند مقام شيخ أو ضريح ولي، ولما كان اليوم الثالث، خرج الناس في رحلتهم، وانتهي صاحب النعش من زيارة جميع الأضرحة المحيطة بالقرية، ولما عادوا به نهاية اليوم، قادهم إلي مكان آخر خلاف بيته، وتوقف عند قطعة أرض فضاء ورفض التحرك منها، وهنا علا التهليل والتكبير، زغردت النساء، وأطلق الرجال الرصاص بكثافة، لأن الشيخ اختار لمثواه الأخير قطعة أرض نشب حول ملكيتها نزاع

عنيف بين عائلتين، وكأنه قرر ـ برسالة لا تقبل التأويل من داخل نعشه ـ أن ينهي الخلاف بين العائلتين، وتتحول قطعة الأرض محل الخلاف إلي مقام وضريح له!

كما أن أطراف النزاع، لن يتأخرا أبدا في تلبية طلب الشيخ، والتنازل عن الأرض طواعية لتتشرف بأن تكون محلا لضريحه ..

هذا ما سمعته، وهذا ما تؤمن به الأغلبية، أما الأقلية فهي تعتبر كل هذه القصة مجرد أكاذيب، بل ويتهمون بعض الأطراف التي عاصرتها بأنهم تعمدوا ـ بدافع فعل الخير ـ أن يضعوا نعش الشيخ في قطعة الأرض المُتنازع عليها، وهم يعلمون أن طرفي النزاع لن يتأخرا أبدًا في تلبية طلب صاحب المقام ..

في كل الأحوال، ما زال ضريح الشيخ ـ رحمة الله عليه ـ قائمًا، ومازال أهل قريتي يتبركون به، ويطلبون منه المدد، يسرون له بأحلامهم، ويلجأون إليه في الشدائد!

***

في نفس السياق، تأتي أسطورة إمام الحرم النبوي، وهي حكاية يعرفها جيلي كله، وقد تطورت الآن مع عصر ثورة المعلومات والإنترنت، فاتخذت أشكالًا أخري أكثر تقدمًا..

وقتها كنا نفاجأ بواحد من زملائنا يوزع علينا ورقة مكتوب فيها أن الشيخ أحمد إمام الحرم النبوي الشريف، رأي الرسول ـ

صلي الله عليه وسلم ـ في المنام، فأوصاه بأن يدعو أمته إلي العودة لشريعة الله، وتطبيق أحكام دينه الذي لا ملجأ لأمتنا المنكوبة إلا إليه..

وتطلب الرسالة ممن يتسلمها أن ينسخ منها عشرين نسخة، يوزعها علي أصدقائه وأقاربه ومعارفه، وتتوعد من يهملها بكوارث ضخمة، تبدأ من وفاة شخص عزيز لديه، مرورًا بأن تركبه الديون، أو يُفصل من عمله، أو يفشل مشروعه التجاري، ومع كل نوع من تلك الكوارث تستشهد الرسالة بأشخاص ـ لا تذكر أسمائهم ـ تعرضوا لهذا الجزاء، وفي المقابل، يغريك كاتب الرسالة بخير كثير، ورزق وفير، لو التزمت بالأمر ووزعت عشرين نسخة من الرسالة علي من تعرف!

بدأت علاقتي بتلك الرسائل عندما قدمها إليَّ زميلي في المدرسة، وهو شارد الذهن، وحذرني من الإهمال في هذا الأمر، وزاد علي ذلك بالتأكيد علي أن واحدًا من جيرانه تعامل مع الرسالة باستهزاء، فماتت أمه بعدها بأيام!

بالطبع خفت من تحذيراته، خاصة وأنا أري علامات القلق الشديد علي وجهه، لأنه لم يتمكن سوي من نسخ ثمانى نسخ فقط لانشغاله بعمل واجب الحساب، حيث كانت ماكينات التصوير وقتها قليلة الانتشار، وكنا بالطبع لا نملك ثمن التصوير..

سهرت أنسخ وأنسخ، وفي اليوم التالي وزعت ما نسخت، وانتظرت في اليوم التالي أن يأتيني الخبر السعيد وأنا أسأل نفسي: يا تري هيحصل إيه؟ هل سيقرر والدي زيادة مصروفي؟ أو تكف أمي عن إغلاق التليفزيون كلما شاهدتني جالسًا أمامه وقت المذاكرة؟

ربما يأتيني الخبر السعيد من المدرسة، فيقرر الناظر تنظيم الرحلة التي يعدنا بها منذ عامين إلي آثار تونا الجبل، لنري هناك تمثال إيزيس بطلة الأسطورة الشهيرة، لأن صديقًا لنا سبق له أن رأي التمثال، وعاد ليحكي لنا مبهورًا:

ـ اسكت ياد أنت وهو .. شفنا إيزيس نايمة عريانة ملط..

ونتطلع نحن إليه مندهشين، وهو يطلق من فمه صفيرًا متقطعًا يعبر به عن إعجابه الشديد بجسد بطلة الأسطورة!

الغريب أن كل أحلامي وطموحاتي تلك لم تتحقق، لم تفعل الرسالة التي سهرت علي نسخها ليلة كاملة شيئًا، لا هي حققت آمالي، ولا مسخت من أهملوها ودمرت حياتهم..

ومرت الأيام وتطورت وسائل الاتصال، فلم يعد النسخ اليدوي هو الوسيلة، بل انتشرت ماكينات التصوير، واستمر نسخ الرسائل وتوزيعها، والآن وبعد أن أصبحت ماكينات التصوير موضة قديمة، صرت أتسلم نفس الرسالة علي بريدي

الإلكتروني، أو علي صفحة الفيس بوك، وصاحبها لا يطلب مني نسخًا ولا تصويرًا ولا توزيعًا ولكن مجرد ضغطة، لتصل إلي كل أصدقائي!

ونحن صغار، لم نكن نعرف مصدر الرسالة الورقية التي تبلغنا بمضمون رؤيا الشيخ أحمد إمام الحرم النبوي، كنت آخذها من زميل، أخذها بدوره من زميل آخر، والزميل الآخر أهداها له زميل ثالث، وهكذا إلي مالا نهاية، دون أن نحدد المصدر الأصلي للرسالة، لكننا كنا ننسخ، ونوزع، نخاف من عقاب الرسالة، ونحلم بمكافآتها ومفاجآتها السارة!

***

10

الكمون المغلي هو العلاج المثالي للمغص، للكبار والصغار، وكذا الينسون والحلبة، أما علاج نزلات البرد فهو الليمون، وكان من المتعارف عليه أن زجاجات الكوكاكولا تقدم للضيوف فقط، لذا فإن إقدام شخص علي شراء زجاجة كوكاكولا دون أن يكون في بيته ضيوف يعني أنه هو، أو واحد من أهل بيته مريض، ويعاني من مشكلة في الهضم!

زيارة الطبيب تعني أن هناك كارثة، واستدعاؤه إلي المنزل كان يعني أنه ـ في الغالب ـ جاء ليكتب شهادة الوفاة!

أهل قريتي كانوا يعالجون أنفسهم بأنفسهم، لديهم روشتة توارثوها جيلًا بعد جيل، علاج لكل مرض، أما الذهاب إلي الوحدة الصحية فيكون في الحالات الحرجة فقط، أو عند فشل العلاج التقليدي المتوارث!

عندما كانت عيني تلتهب، تحمر وتتورم، تعالجني أمي علي طريقة رواية قنديل أم هاشم ليحيي حقي، والفرق أن علاج أمي لم يكن بزيت القنديل، ولكن بالشاي!

نعم بالشاي، تحضر نصف كوب شاي دافئ، وقطعة قطن، تغمس القطن في الشاي وتمسح به عيني عدة مرات، وفي كل يوم يتراجع الالتهاب، ومع تكرار العلاج بالشاي كل ليلة، يختفي الالتهاب تمامًا..

الكمون المغلي هو العلاج المثالي للمغص، للكبار والصغار، وكذا الينسون والحلبة، أما علاج نزلات البرد فهو الليمون، وكان

من المتعارف عليه أن زجاجات الكوكاكولا تقدم للضيوف فقط، لذا فإن إقدام شخص علي شراء زجاجة كوكاكولا دون أن يكون في بيته ضيوف يعني أنه هو، أو واحد من أهل بيته مريض، ويعاني من مشكلة في الهضم!

أما الطفح الجلدي الذي يتطور إلي «دمل» في أي منطقة بالجسم فعلاجه الحاسم هو عجينة بالسكر، بعض الدقيق وبعض السكر، يتم خلطهما بالماء حتي يصبح قوام العجينة متماسكًا، توضع العجينة علي الدمل، ويتم تثبيتها برباط صغير من القماش، وتترك لليوم التالي، وربما تحتاج الحالة إلي وقت أطول، فيتم صنع عجينة جديدة ووضعها بنفس الطريقة، «وكأن للعجينة تاريخ صلاحية»، وما هي إلا أيام وتجد الدمل قد انفتح، وامتصت العجينة ما به من صديد!

وبطريقة مشابهة يعالج الأصبع الذي ينغرس فيه الظفر، فيلتهب ويسبب ألمًا قاسيًا لا يحتمل، لكن هذه المرة يتم وضع بصلة في الفرن حتي تشوي، ثم تثبت فوق موضع الألم حتي يشفي..

وقد عانيت طوال سنوات طفولتي من ألم الحلق، الذي يحتقن، ثم ينتشر الالتهاب في منطقة البلعوم كلها، وتنتقل الآلام الحادة من الحلق إلي الأنف والأذنين، وذات مرة كنت مريضًا، وزارتنا سيدة مسنة من أقاربنا، وعندما علمت ما أعانيه، طلبت ليمونة،

وعصرت منها بضع قطرات في ملعقة صغيرة، ثم وضعت الملعقة بالقرب من النار حتي أصبح الليمون دافئًا، كنت أتابع الأمر بلامبالاة، متوقعًا أنها ستطلب مني أن أشرب ملعقة الليمون، لكنها فاجأتني بما لم أتوقعه، طلبت منى النوم علي جنبي، ففعلت متوجسًا، ثم أمسكت برأسي لتشل حركتي، وسكبت الليمون الدافئ في أذني، فصرخت، لكنني فشلت في الإفلات من يدها القوية، وظلت لحظات تضغط علي رأسي حتي تطمئن إلي أن السائل قد وصل لأنفي وحلقي، بكيت بشدة وتمنيت لو تمكنت من تحطيم رأسها، لكنها كانت تضحك، وتطلب من الجميع انتظار النتيجة، وفي الصباح كنت قد شفيت!

ومن بين الموروثات ـ التي تستند إلي أساس علمي ـ استخدام الخل لإنقاص الوزن لأنه يحرق الدهون، ولأني كنت طفلًا بدينًا، نصحني أحد أقاربي بالإكثار من تناول الخل مع السلاطة الخضراء، انتظمت علي ذلك عدة أيام، لكنني كنت أتعجل النتائج، فقررت أن أشرب زجاجة خل كاملة، ولكم أن تتخيلوا ما حدث عندما نفذت هذا القرار!

ـ 11 ـ

بدأ الجميع في الاستعداد للمباراة وتقسيم الأدوار، وبينما الفريق المنافس يتحرك بحماس وثقة في الفوز، كان أعضاء فريقنا يائسين محبطين، ولم أكن بحاجة إلي ذكاء خارق لكي أتيقن من أنهم ـ وإن لم يعلنوا ـ يحملونني مسئولية ما سيحدث في هذه المباراة، وكنت أنا مرتبكًا وخائفًا، أسأل نفسي ـ علي طريقة كبار نجوم كرة القدم ـ «كيف ألعب مع فريق يفتقد أدني درجات الانسجام وروح الحب والتعاون»؟!

مرة واحدة في حياتي لعبت مباراة كرة قدم..

نعم، لم تكن الرياضة ـ حتي الآن ـ جزءًا من اهتماماتي، وهو ما جعلني كثيرًا أشعر بالحرج، وبأنني شخص غريب، وناقص الأهلية!

ذات مرة، كنت أشارك في تحرير صحيفة لم يسمع عنها أحد، ولن يسمع، صحيفة يصدق عليها تمامًا وصف «السبوبة»، صدر منها نحو خمسة أعداد فقط، وكنت مسئولًا فيها عن «الديسك»، أو إعادة الصياغة الصحفية للموضوعات، وأحضروا لي صفحة الرياضة للمراجعة، ولأن خط المحرر كان صغيرًا ودقيقًا فقد وجدت صعوبة في قراءتها، وكان من بين الموضوعات تحقيق صحفي عن مباراة تلعبها ألمانيا، ولسوء الحظ ـ وجهلي بالرياضة طبعًا ـ قرأتها «المنيا»، وظننت أن في الأمر خطأ كتابة فغيرتها في العنوان والمتن من «ألمانيا» إلي «المنيا»، وبعد ساعات سمعت رئيس التحرير يصرخ بعصبية شديدة «مين اللي راجع صفحة الرياضة»؟

وبالطبع اختفيت حتي تم تدارك الموضوع، ومن يومها توقفت تمامًا عن العمل علي أي موضوعات رياضية، وكنت أشترط من

بداية التحاقي بالعمل في أي صحيفة ألا يُطلب مني مراجعة أو متابعة القسم الرياضي!

أعود إلي الحدث الأهم، وهو مباراة كرة القدم الوحيدة التي لعبتها في حياتي، كنت في العاشرة من عمري تقريبًا، وذهبت مع الأسرة في زيارة عائلية لمنزل خالي ـ رحمة الله عليه ـ في المدينة، وكان أولاده في مثل سني فرحبوا بي وأكرموا ضيافتي واصطحبوني معهم إلي النادي، تعرفت إلي أصدقائهم، وتجاذبنا أطراف الحديث حتي قرر الجميع لعب مباراة في كرة القدم، وبدأوا تقسيم أنفسهم إلي فريقين، ولأني كنت سمينًا، وحجمي لا يوحي أبدًا بقدرتي علي تحقيق أي إنجاز رياضي، تهرب الجميع مني، ولاحظت نظراتهم المتبادلة التي تفضح تواطؤهم جميعًا ـ دون سابق اتفاق ـ علي استبعادي كل من فريقه، شعرت بالحرج، ولعنت وزني الذي طالما وضعني في تلك المواقف، وما أصعب إحساس المنبوذ خاصة في سن الطفولة..

بدأت أفكر في حل للأزمة، لو أعلنت عن غضبي من تصرفهم، فربما يجدون أنفسهم مضطرين إلي الإعلان عن رأيهم بوضوح، فتتحول نظراتهم المترددة إلي عبارات صريحة، عليّ إذن أن أحافظ قدر استطاعتي علي خجلهم حتي لا يتخلصوا منه، وتصبح المواجهة بيني وبينهم علنية ودون مواربة، وتكون هذه هي الواقعة الأولي التي يحصل فيها لاعب علي الكارت الأحمر قبل بدء المباراة!

الحل الوسط إذن أن أتخذ قرارًا وأعلنه بعدم المشاركة في المباراة، لأي سبب، مرهق، غير مستعد بدنيًا، لم أقم بتمرينات الإحماء، مريض، أي سبب يبدو منطقيًا ينقذني من هذا المأزق!

ولكن هل سيقنعهم ما سأقوله؟ أو أنهم سوف يكشفون مناورتي، ويعودون إلي تبادل نظراتهم الساخرة؟

أنقذني ابن خالي من دوامة التفكير، نظر حوله متأملًا وجوه أصدقائه ثم أعلن قراره:

ـ هشام معايا في الفريق بتاعي.

كان يبدو علي وجهه أنه لن يقبل بأي نقاش حول قراره، شعرت بأن حجرًا ثقيلًا قد انزاح عن صدري، وبشكل غير إرادي، رحت أتأمل وجوه المحيطين بي، كانت الفرحة والسعادة تكسو وجوه نصفهم «أعضاء الفريق الخصم»، وكان القلق الذي يقترب من الغضب مسيطرًا علي النصف الآخر «أعضاء فريقي»، وربما حاول أحدهم أن يعترض، لكن نظرة واحدة من ابن خالي ـ حفظه الله ـ ألزمته الصمت حرصًا علي مشاعري، وإكرامًا لكوني ضيفًا عليهم..

بدأ الجميع في الاستعداد للمباراة وتقسيم الأدوار، وبينما الفريق المنافس يتحرك بحماس وثقة في الفوز، كان أعضاء فريقنا يائسين محبطين، ولم أكن بحاجة إلي ذكاء خارق لكي أتيقن من أنهم ـ وإن لم يعلنوا ـ يحملونني مسئولية ما سيحدث في هذه المباراة، وكنت أنا

مرتبكًا وخائفًا، أسأل نفسي ـ علي طريقة كبار نجوم كرة القدم ـ «كيف ألعب مع فريق يفتقد أدني درجات الانسجام وروح الحب والتعاون» ؟!

وما هي إلا لحظات حتي أصدر ابن خالي الطيب قراره الثاني:

ـ هشام هو حارس المرمي.

نزلت كلماته مثل بلسم شافٍ علي قلبي، ومن الواضح أنها فعلت نفس الشيء لدي بقية أعضاء الفريق، ليس لثقتهم بمهاراتي في حراسة المرمي بالطبع، ولكن ربما شعروا ببعض الاطمئنان لأني لن أكون موجودًا بينهم في الملعب، بغض النظر عما سيترتب علي حراستي للمرمي من نتائج..

شعرت أولًا بالامتنان الشديد لابن خالي، وثانيًا بالمسئولية الشديدة التي وضعني فيها، فكل كرة يمكن أن تفلت مني وتدخل في شباكي سوف تثبت للجميع أن قراره كان خاطئًا، وبدافع المجاملة ليس إلا، ولكن كيف لي أن أتمكن ـ دون تمرين ـ من صد هجمات الأعداء؟

وبعقلية الطفل الصعيدي اتخذت قرارًا بالتعامل مع الكرة بوصفها عدوًا يجب قتله لو بعملية انتحارية، وبدأت المباراة وأنا في وضع الاستعداد مصرًا علي منع دخول الكرة إلي المرمي بأي ثمن..

كان الفريق الخصم فيما يبدو مسترخيًا ومطمئنًا من ناحيتي،

وأعضاؤه واثقون من فشلي في صد هجماتهم، مما ساعدني كثيرًا في أداء مهمتي، وما هي إلا دقائق من الشوط الأول حتي لمحت نظرات القلق في عيون المنافسين، وعلامات الارتياح علي وجوه أعضاء فريقي وهم يرون استبسالي في الدفاع عن المرمي..

في الشوط الثاني كان الهجوم كثيفًا بعد أن أيقن المهاجمون أنهم يتعاملون مع حارس مرمي قوي ومنتبه علي عكس ظنونهم، لكن ذلك زادني حماسًا وإصرارًا، حتي انتهت المباراة بفوز فريقي ورحنا نصرخ ونهلل فرحًا..

سعدت بنظرات وكلمات الإعجاب التي قالوها في حقي، وكان ابن خالي فرحًا وقد رأي الجميع نتيجة قراره الحكيم بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وربما فكر أحد أعضاء فريقي في الاعتذار لي عن ظنه السيئ بي لكنه تراجع، حتي لا نفسد فرحة الانتصار بتقليب المواجع واستعادة الذكريات المؤلمة..

أكسبتني هذه المباراة ثقة في نفسي، وشعرت بأنني لو أكملت طريقي فربما أحقق إنجازًا في مجال حراسة المرمي، لكنني قمعت هذا الحلم بداخلي مستعينًا بحكمة جدتي التي تقول: «مش كل مرة تسلم الجرة»، ومن يومها انتهت علاقتي بكرة القدم للأبد!

12

وجد «بقلظ» نفسه في لحظة، يتصدر الأحداث، والقصة أن حريقًا هائلًا شب في مبني التليفزيون، قامت علي أثره صحف المعارضة بحملة هجوم عنيفة علي اللواء زكي بدر وزير الداخلية، بسبب فشل وزارته في تأمين مبني ماسبيرو بما له من أهمية أمنية وإعلامية وسياسية ضخمة، ولأن الوزير كان قد اعتاد علي السخرية اللاذعة من المعارضة وصحافتها، فقد خرج في مؤتمر صحفي ليكشف عن ملابسات حريق مبني التليفزيون، فقال إن سبب الحريق أن «ماما نجوي كانت بتحمي بقلظ، ولمست بيدها جزءًا حساسًا من جسده، فحدث الماس الكهربائي الذي سبب الحريق»!

بدأ ميلي للقراءة مبكرًا، منذ أن كنا ندرس في المرحلة الابتدائية قصة «عقلة الإصبع»، وهي قصة خيالية عن الطفلة «أماني» التي تخوض مغامرات طويلة مع «عقلة الإصبع»، ذاك المخلوق الصغير جدًا، والذكي جدًا، وكان مدرس اللغة العربية الأستاذ محمد لطفي، حريصًا علي أن نحفظ القصة ـ لا أن نقرأها ونستوعبها فحسب ـ لذلك فقد كان واجبنا المنزلي يوم الخميس هو أن نكتب القصة في كشكول الواجب، نكتبها كاملة من أولها لآخرها، نقضي يوم الجمعة في حالة طوارئ، وكنت أحيانًا أستعين بشقيقي الأكبر عادل ليساعدني في كتابة فصل أو اثنين!

كان التعليم في مصر وقتها مازال متماسكًا، ولم تكن مافيا الدروس الخصوصية قد توحشت بهذا الشكل، لذلك كان المعلم يبذل في الفصل أقصي ما يمكنه من جهد، لكي يحقق تلاميذه نتائج جيدة في الامتحانات..

الأستاذ محمد لطفي رغم عنفه واعتياده ضرب المقصرين من التلاميذ بالعصا علي أقدامهم، إلا أنه كان صاحب ضمير حي ويقظ، كان غريبًا عن قريتنا فهو ينتمي إلي بلدة أخري، مظهره يثير

انتقاد أهل قريتي، فقد كان أنيقًا وفق مقاييس الأناقة وقتذاك، يرتدي البنطلون رجل الفيل، والقمصان المشجرة، وشعره طويل جدًا، وهو ما يعتبره البعض نوعًا من الميوعة ونقص الرجولة!

ولأن المواصلات وقتها كانت من الصعوبة بحيث يكون الانتقال من قرية إلي أخري يوميًا أمرًا صعبًا وشاقًا، استأجر الأستاذ غرفة صغيرة في الدور الأرضي بأحد بيوت قريتنا ليقيم بها، وفي أيام الامتحانات كان يطلب منا أن نذهب إليه في غرفته تلك في الساعة الخامسة صباحًا، حيث نتجمع أمام سبورة صنعها بالدهان الأسود علي جدار الغرفة، ليراجع معنا المراجعة الأخيرة للمنهج كله، لمدة ثلاث ساعات حتي يقترب موعد الامتحان فنخرج من غرفته المتواضعة إلي المدرسة نؤدي امتحاناتنا، كان يفعل ذلك دون مقابل، واستمر يفعل ذلك حتي اختفي وغادر قريتنا ولما سألت عنه قيل لي إنه ترك العمل بالتدريس وعاد إلي قريته ليعمل «ترزيًا»!

كان الأستاذ محمد حريصًا علي أن يعلمنا، وأن نخرج من حصته وقد استوعبنا دروسنا تمامًا، رغم ما كنا نبديه أحيانًا من غباء منقطع النظير، مثال ذلك أنني عندما شرح لنا حديث الرسول ـ صلي الله عليه وسلم ـ الذي يقول فيه «نحن قوم لا نأكل حتي نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع»، فهمت معني الحديث علي عكس المقصود منه تمامًا، ورسخ في ذهني أن الرسول يقول أننا ـ كمسلمين ـ لا نأكل حتي

نجوع، أي أننا بمجرد أن نأكل، نجوع مرة أخري، وإذا أكلنا لا نشبع، بمعني أننا مهما أكلنا من طعام، لا نشبع أبدًا!

ربما يكون فهمي للحديث الشريف، مرتبطًا ببرنامجي الغذائي في ذلك الوقت، حيث كنت أتناول الطعام بشراهة، ومهما أكلت لا أشعر بالشبع !!

ما زلت أذكر ملامح هذا الرجل، خاصة عندما كنا نلاحقه أنا وزملائي بعد انتهاء اليوم الدراسي، نتوسل إليه أن يخفف الواجب المنزلي قليلًا ويرد هو بالرفض في أغلب الأوقات، وفي مرات نادرة يرق قلبه لتوسلاتنا، فيطلب منا كتابة نصف قصة عقلة الإصبع فقط بدلًا من أن نكتبها كلها!

استفدت كثيرًا من قسوة الأستاذ محمد لطفي، وظهرت استفادتي في عدة وجوه، الأول هو خطي الذي صار جميلًا أنيقًا، وفي أيامنا تلك كان خط الطالب مؤشرًا مهمًّا علي تفوقه، وأحيانًا كان عاملًا يتم وضعه في الاعتبار عند التعيين في الوظائف، والثاني هو تمكني من قواعد النحو بحيث أصبحت أخطائي في هذا المجال قليلة جدًا، وصرت أمتلك ما يمكن تسميته «فطرة اللغة السليمة»، حيث علمني تكرار الكتابة بهذا الشكل الغريب، أن أطبق القاعدة اللغوية فأرفع المرفوع وأنصب المنصوب، دون أن أعرف ـ في بعض الأحيان ـ سبب الرفع أو النصب، أما الوجه الثالث وهو الأهم فهو بذرة

الخيال القصصي التي زرعتها بداخلي قصة عقلة الإصبع، لذلك كان من الطبيعي بعد أن تجاوزت المرحلة الابتدائية أن يتحول شغفي كله صوب القراءة والكتابة، كم أتمني الآن أن تصل نسخة من كتابي هذا إلي الأستاذ محمد لطفي ـ أتمني أن يكون حيًا يرزق ـ ليعرف كم أنا ممتن له، رغم قسوة واجباته المنزلية!

من عقلة الإصبع انطلقت نحو سلسلة ألغاز «المغامرون الخمسة» التي كان يكتبها الكاتب الراحل محمود سالم. كنت في المرحلة الإعدادية قد انتقلت من قريتي إلي مدرسة في مدينة ملوي، وبالطبع كانت هناك فروق كبيرة جدًا بين مدرستي الريفية، ومدرسة رمسيس التي التحقت بها في المدينة، وأهم تلك الفروق هو وجود مكتبة بها مئات الكتب في شتي المجالات، حيث أصبحت فيما بعد أحد أكثر الطلاب تعاملًا معها، كنت أستعير الكتاب وأعيده في اليوم التالي فيندهش أمين المكتبة من أنني قرأته في يوم واحد..

والمغامرون الخمسة لمن لا يعرفهم هم: «تختخ ونوسة ولوزة ومحب وعاطف»، ويروي كل كتاب من السلسلة مغامرة جديدة لهم، يقومون خلالها بمساعدة الشرطة ممثلة في «المفتش سامي»، للقبض علي مجرم أو عصابة أو حل لغز جريمة غامضة، وكان المفتش سامي عندما تضيق به السبل ويفشل في كشف غموض جريمة يستدعي المغامرون الخمسة وهو علي ثقة تامة من أنهم سوف يصلون للحقيقة!

أحببت من بين المغامرين شخصية «تختخ»، لأنه الأكثر شبهًا بي من حيث الملامح الشكلية، وترسخت في ذهني صورة رائعة جدًا لرجل الشرطة المفتش سامي، إلي الدرجة التي تخيلت معها أنني قد أستطيع يومًا أن أخوض مغامرة مع رجل شرطة مثله وأساعده في حل لغز جريمة ما!

وعلي عكس المفتش سامي كانت شخصية «الشاويش علي»، الذي كان يكره المغامرين ويضيق بتدخلهم في عمله، بل ويتسبب أحيانًا في تعويقهم عن أداء مهمتهم، وبمجرد أن يراهم أمامه يصرخ فيهم قائلًا: «فرقعوا من أمامي»، لذلك فقد أطلقوا عليه اسم «الشاويش فرقع»!

قضيت ليالى طويلة مع المغامرين مستمتعًا بذكائهم، وبراءتهم، وحرصهم علي المخاطرة بحياتهم في سبيل الحفاظ علي مجتمعهم من الجريمة، وربما كان لهم الفضل في إيماني المبكر جدًا بما عرفت بعد ذلك أنه «دولة القانون»، والانحياز إلي قيم الشرف والعدالة!

نعم كانت قصصًا بسيطة إلي حد السذاجة، لكنها زرعت فينا قيمًا جميلة، كبرت معنا، وصارت مكونًا رئيسيًا لشخصياتنا، وهو ما نفتقده الآن للأسف، ربما لأننا لا نملك الآن كتَّابًا متخصصين في الكتابة للطفل، وربما لأن التقدم التكنولوجي الهائل أثر علي ميول الأطفال واهتماماتهم، فصارت الكتابات التي تستهدفهم تحاول

مواكبة هذا التقدم دون أن تنجح في ذلك، إضافة إلي ارتفاع مستوي الذكاء لدي الأطفال حاليًا، بحيث لم يعد من الممكن أن يستمتعوا بقصص كان جيلنا يقرأها بشغف، بينما قد يرونها هم مجرد «حكايات هبلة»، ولنا أن نتخيل رد فعل طفل يقرأ الآن قصة يقول أحد أبطالها عبارة الشاويش علي: « فرقعوا من أمامي»!

ومثلما اختفت سلاسل القصص المخصصة للأطفال، اختفت أيضًا برامج الأطفال من التليفزيون، ولم تعد برامجهم موجودة علي خريطة القنوات الفضائية التي تبحث فقط عن الإعلانات، أما جيلي فهناك جزء من مكونات شخصيته كان مسئولًا عنه مذيع الأطفال الوحيد الذي رأيته حتي الآن، المذيع ماجد عبدالرازق، أو «بابا ماجد» الذي كان يقدم برنامج أطفال شهير وقتها، وقبل أن نري حلقات الكارتون المعروفة «توم وجيري»، استمتعنا بكارتون مدبلج للعربية هو «سندباد»..

أما في الإذاعة فعن «أبلة فضيلة» حدث ولا حرج، الحضور الطاغي، الصوت الإذاعي الذي يدخل قلبك من اللحظة الأولي، القصص التي ساهمت في تشكيل عقولنا، أغاني الأطفال الرائعة التي ساهمت فوق ذلك في اكتشاف مواهب عديدة، وعندما خطونا عدة سنوات للأمام، تسلمت الزمام الإعلامية نجوي إبراهيم ومعها أشهر عروسة في تاريخ برامج الأطفال «بقلظ»، الذي كان يؤدي

صوته الفنان الرائع سيد عزمي، وبعد سنوات، ودون مبالغة، تحول «بقلظ» إلي واحد من أفراد الأسرة في كل بيت، ينتظره الأطفال ليقدم لهم بسلوكياته الخاطئة، درسًا يوميًا فيما يصح وما لا يصح..

ويحسب لـ«بقلظ» أن دوره لم يقتصر علي مجرد كونه «عروسة» في برنامج أطفال، بل تعدي ذلك ليصبح في لحظة، بطلًا لحدث سياسي هز مصر كلها!

كان وزير الداخلية في ذلك الوقت هو الوزير «الأشرس والأعنف» في تاريخ مصر، اللواء زكي بدر، والد الدكتور أحمد زكي بدر الذي تولي الوزارة أكثر من مرة قبل ثورة يناير 2011 وبعدها، كان زكي بدر الأكثر إثارة للجدل، بداية من خلافه العنيف مع حزب الوفد وجريدته، والصحفي أيمن نور، وقيام نائب حزب الوفد في ذلك الوقت «طلعت رسلان» بصفع الوزير تحت قبة البرلمان وأمام كاميرات التليفزيون، وانتهاء بقيام الصحفي صلاح النحيف بتسجيل كلمة للوزير في مؤتمر عام، سب خلالها بألفاظ نابية كبار المسئولين، وعلي رأسهم الدكتور عاطف صدقي رئيس الوزراء آنذاك، وكبار الصحفيين والإعلاميين ورؤساء الأحزاب السياسية، ونشر النحيف نص الشتائم في جريدة الشعب، فأصدر الرئيس حسني مبارك قرارًا بإقالة الوزير بعد سنوات حافلة بالأحداث!

عودة إلي الحبيب «بقلظ» الذي وجد نفسه في لحظة يتصدر

الأحداث، والقصة أن حريقًا هائلًا شب في مبني التليفزيون، قامت علي أثره صحف المعارضة بحملة هجوم عنيفة علي وزير الداخلية، بسبب فشل وزارته في تأمين مبني ماسبيرو بما له من أهمية أمنية وإعلامية وسياسية ضخمة، ولأن اللواء زكي بدر كان قد اعتاد علي السخرية اللاذعة من المعارضة وصحافتها، فقد خرج في مؤتمر صحفي ليكشف عن ملابسات حريق مبني التليفزيون، فقال إن سبب الحريق أن «ماما نجوي كانت بتحمي بقلظ، ولمست بيدها جزءًا حساسًا من جسده، فحدث الماس الكهربائي الذي سبب الحريق»!

لم يكن جيلنا محظوظًا فقط في سلاسل القصص التي تبني أخلاقياته وقيمه، ولا في برامج التليفزيون الممتعة التي تشكل وعيه، بل كان محظوظًا أيضًا في رجال السياسة والحكم، وعلي رأسهم اللواء زكي بدر صاحب النوادر والطرائف والغرائب والعجائب!

في طفولتنا وصبانا كان المسلسل التليفزيوني حدثًا عظيمًا، دون حملات للدعاية، ولا لافتات ضخمة علي الطرق والكباري، كل المصريين كانوا يتابعون مسلسلين فقط، الأول في السادسة والربع مساء علي القناة الثانية، والثاني بعده بساعة علي القناة الأولي، لم يكن كتَّاب الدراما مضطرين إلي مط الحلقات وحشوها بثرثرة لا داعي لها لأن القناة مرتبطة بعقود إعلانات لمدة 30 يومًا، أعظم المسلسلات

في تاريخ الدراما المصرية كانت 15 أو 16 حلقة وربما أقل، شاهدنا ما كان يسمي بـ«السباعية»، أي مسلسل السبع حلقات، وسهرنا مع تمثيلية السهرة التي هي حلقة واحدة طويلة..

لم تكن الإعلانات قد توحشت وتغولت علي الفن مثلما نشاهد الآن، أذكر أن كُتَّابًا كبارًا كانوا يخصصون مقالاتهم للهجوم علي التليفزيون لأن الفترة الإعلانية التي تسبق المسلسل طالت بعض الشيء، وعندما فكر التليفزيون في وضع إعلان يقطع المسلسل، هاجت الصحف، ورفض النقاد، بل واحتج صناع الدراما أنفسهم، علي هذا المسلك الذي يؤدي إلي تشويه أعمالهم، والعدوان علي حق المشاهد في عدم قطع سياق استمتاعه بالعمل الدرامي لأسباب تجارية!

13

لجأت إلي الحل الذي لا يدخلني في مواجهات عائلية، قصصت جزءًا من شعري، وصنعت الشارب واللحية، استخدمت الصمغ في لصقهما علي وجهي، صحيح أن بشرتي أصابها ما أصابها، لكنني كنت سعيدًا بالإنجاز، وبأنني أصبحت ملك التنكر مثلي مثل تختخ زعيم «المغامرون الخمسة»، لكن الغريب في كل هذا العبث الطفولي، أنني لم أفكر في مرحلة ما بعد التنكر، أي ماذا سأفعل بعد أن أصبحت شخصًا آخر؟!

المغامرون الخمسة أسلوب حياة، هذا ما حدث معي، كنت أعتبر نفسي صديقهم السادس، وأحيانًا كنت أطمح إلي الإطاحة بـ«تختخ»، وتولي موقع الزعامة الذي يحتله بذكائه والكاريزما التي يتمتع بها، وفي لحظات خيل لي أنني أشعر بالحب تجاه لوزة، فهي رغم صغر سنها كانت الأكثر ذكاء من بينهم، كما أن الفارق بيني وبينها في العمر لم يكن كبيرًا، علي العكس من نوسة، التي كانت أكبر سنًا لكنها الأقل جاذبية وذكاء!

علي يد تختخ زعيم المغامرين عرفت أن هناك فنًا اسمه فن «التنكر»، وقد كان تختخ بارعًا فيه إلي درجة أنه خصص غرفة في منزله سمَّاها غرفة التنكر، ووضع فيها كل الأدوات والملابس التي يحتاج إليها لكي يتحول إلي شخص مختلف تمامًا، مرة بائع متجول، ومرة ثانية ساعي بريد، ومرة ثالثة رجل عجوز .... وهكذا..

استهوتني فكرة التنكر، ورحت أقضي الكثير من وقتي أمام المرآة، أحاول أن أحقق ولو جزءًا بسيطًا من إنجازات تختخ في هذا المجال!

واجهتني عقبة الأدوات، خاصة أن المؤلف في سلسلة »المغامرون

الخمسة« لم يكشف أي شيء عن الأدوات التي كان يستخدمها تختخ في التنكر، الملابس ليست مشكلة فأنا أستطيع تدبير ملابس مناسبة لأي شخصية أريد أن أتنكر فيها، ولكن كيف أصنع في وجهي تجاعيد توحي بتقدم السن مثلًا؟ كيف أصبح أصلع الرأس؟ كيف ـ وأنا ما زلت طفلًا ـ يصبح لي شارب أو لحية حسبما تقتضي طبيعة الشخصية؟

وجدت حلًا بدائيًا لمشكلة التجاعيد، أحضرت أقلام الألوان خاصة اللونين البني والأصفر، لأنهما الأقرب إلي لون البشرة، ورحت أفرغ محتويات اللون في قليل من الماء، وباستخدام فرشة صغيرة، أرسم التجاعيد أسفل العينين وحول الأنف، كانت فرحتي عارمة وأنا أنظر إلي ملامحي وقد صارت أقرب إلي وجه رجل عجوز علي جسد طفل!

وتبقي مشكلة الشارب واللحية، من أين أحصل عليهما؟

ولأن أختي الكبري كانت طيبة القلب لا ترفض لي طلبًا، تخيلت أنها لن تمانع في أن أقص جزءًا من شعرها لأستخدمه في مهمتي، وطلبت منها ذلك بالفعل، لكن رد فعلها كان مخيبًا لآمالي، وربما اعتقدت وقتها أنني أهزي، وهو ما استفزني وجعل الدم يغلي في عروقي، وأعلنت علي الملأ أنني أريد جزءًا بسيطًا من شعر أختي، ولن أتنازل!

قضت المسكينة فترة طويلة وهي خائفة من تهوري، خاصة أنني كنت ألوح لها بين الحين والآخر بمقص في يدي، وقد صارحتني فيما بعد أنها كانت تصحو من نومها مفزوعة خوفًا من أن أنفذ تهديدي وهي نائمة!

لجأت إلي الحل الذي لا يدخلني في مواجهات عائلية، قصصت جزءًا من شعري وصنعت الشارب واللحية، استخدمت الصمغ في لصقهما، صحيح أن بشرتي أصابها ما أصابها، لكنني كنت سعيدًا بالإنجاز، وبأنني أصبحت ملك التنكر مثلي مثل تختخ زعيم «المغامرون الخمسة»..

الغريب في كل هذا العبث الطفولي، أنني لم أفكر في مرحلة ما بعد التنكر، أي ماذا سأفعل بعد أن أصبحت شخصًا آخر؟!

تختخ كان يتنكر في هيئة أشخاص يحتاج إليهم في مغامرة ما، لكن ماذا سأفعل أنا بعد أن ارتديت جلبابًا صعيديًا واسعًا، ولصقت فوق فمي شاربًا طويلًا، وصنعت في وجهي تجاعيد تجعلني أكبر سنًا؟ هل بعد كل هذا العناء أخرج من غرفتي متنكرًا فتعرفني أمي وتبتسم؟ أو يضحك شقيقي ساخرًا من هيئتي الغريبة؟ ما جدوي كل هذا الشقاء إذن؟

كانت عمة والدي ـ رحمة الله عليها ـ تعيش معنا في شقة بنفس البيت، وكانت تحبني كثيرًا، وعرفت علي يديها أول ما عرفت

قصص ست الحسن والشاطر حسن وغيرها من حكايات الأطفال المتوارثة، لذلك قررت خوض تجربة التنكر معها، قضيت ساعات أنهيت فيها مهمتي علي خير وجه، وتسللت علي أطراف أصابعي إلي شقتها، وجدتني في مواجهتها ففزعت ولم تعرفني، يااااااه، كم كان شعورًا جميلًا ومبهجًا، أخيرًا نجحت، أخيرًا وجدت شخصًا عندما أتنكر لا يكشف شخصيتي الحقيقية، الحمد لله والشكر لله، كانت النتيجة مبهرة إلي درجة أنني خفت علي عمتي ـ كنا نناديها كذلك ـ من تأثير الصدمة، وكشفت لها عن شخصيتي، فراحت تعاتبني علي ما فعلته وتسألني باهتمام عن كيفية نجاحي في التخفي بهذا الشكل العجيب..

رحمة الله عليها، أتقنت تمثيل إحساس الخوف والفزع، حتي ترضي هذا الطفل الباحث عن لحظة نجاح ساذجة، لحظة أن يشعر بأنه صار مؤثرًا في الآخرين، حتي لو كان تأثيره خوفًا علي وجوههم، أو فزعًا في قلوبهم، أو رعشة في أوصالهم!

حاليًا لا أعرف علي وجه الدقة سر حبي للتنكر، هل كان بالفعل مجرد تقليد ساذج لسلسلة قصص أثرت في وجداني وارتبطت نفسيًا بأبطالها؟ أو أن هناك سببًا آخر لهذا المسلك العجيب، ربما كنت ساعتها أكره كوني طفلًا، ربما كنت أتعجل أن أصير رجلًا له وعليه، ربما لأن الحياة في الريف لا تساعد طفلًا علي التحقق والنجاح في

أشياء مناسبة لعمره..

الطفل في الصعيد بوجه خاص هو «عيل»، ينتظر المحيطون به تقدمه في العمر بفارغ الصبر، لا يستمتعون بطفولته وبراءته، ولا يتركون له الفرصة ليستمتع هو بها، وأظن أن هذا الإحساس قد ترسخ داخلي وقتها بشكل أو بآخر، لأنني أثناء مرحلة ولعي بالتنكر وبحثي عن حل لمأزق الشارب واللحية، كنت أنتظر أبي حتي يفرغ من حلاقة لحيته، وأتسلل لأستخدم ماكينة الحلاقة الخاصة به، أضع الصابون علي وجهي، وأمرر الماكينة علي بشرة طفولية ناعمة ليس بها شعرة واحدة، جرحت نفسي أحيانًا، وضبطتني أمي أكثر من مرة فصرخت مندهشة، خوفًا من أن تنبت لحيتي من كثرة الحلاقة فأصير طفلًا عجيبًا، وكنت أصمت في مواجهة تأنيبها لي، لا أملك ردًا أو تفسيرًا!

علي أي حال، لم تنبت لحيتي قبل موعدها، كما لم أحقق نجاحات أخري في مجال التنكر بعد موقعة عمتي التي مثلت عليَّ لترضيني وتفرح قلبي الصغير، وبالطبع لم يكن ممكنًا أن أكرر التجربة معها حتي لو تنكرت في شخصية أخري، لكن ولعي تحول إلي وجهة أخري أكثر اتساعًا ورحابة، أصبحت متيمًا بالفن، وبالتمثيل علي وجه الخصوص، وهكذا وجدت حلًا لمعضلة مرحلة ما بعد التنكر، وأصبحت أملك إجابة منطقية، أنا أتنكر لكي أمثل!

ـ 14 ـ

طوال فترة البروفات كنت أحلم أنا وزملائي بيوم العرض، حيث سنواجه الجمهور ـ الذي هو في معظمه من أولياء أمور التلاميذ ـ وننتزع منه تصفيقًا حادًّا علي جهدنا الذي استمر عدة شهور، وفي حقيقة الأمر لم يكن موضوع الجمهور والتصفيق يعنيني كثيرًا، حيث كنت أنتظر العرض علي أحر من الجمر، لسبب ربما لم يخطر ببال زملائي، ولا حتي ببال مخرج العرض المؤمن بموهبتي!

نعم .. يجب أن أمثل، وإلا فلماذا أتنكر؟

ظللت أحلم بالتمثيل، حتي واتتني الفرصة، عندما أعلنت المدرسة عن فتح باب الاشتراك في فريق المسرح، وقتها كانت المدارس بها بقايا من تعليم يسعي إلي اكتشاف المواهب ودعمها ورعايتها، فقررت الاشتراك، انتظمت في حضور بروفات لمسرحية كان اسمها «الخوف»، من إخراج موجه التربية المسرحية في إدارة ملوي التعليمية الأستاذ فؤاد صابر ـ رحمة الله عليه ـ كان موضوع المسرحية جميلًا رغم بساطته، يناقش فكرة الخوف الذي تزرعه السلطة «ممثلة في العمدة»، داخل نفوس أهل القرية ومن بينهم «مدبولي» الذي كنت أؤدي دوره، لم أكن ممثلًا فذًا، لكن المخرج كان معجبًا بأدائي وقرر أن يسند لي دور البطولة في المسرحية المقبلة، كان يناديني طوال فترة البروفات باسم «مدبولي»، روح يا مدبولي، تعالَ يا مدبولي، حتي صرت معروفًا بهذا الاسم، وضقت ذرعًا به، وخفت أن ينسي الناس اسمي الأصلي، وأشتهر باسم مدبولي، وفي هذا ـ من وجهة نظري ـ

كارثة لا يعالجها أي نجاح محتمل قد أحققه علي المسرح!

طوال فترة البروفات كنت أحلم أنا وزملائي بيوم العرض، حيث سنواجه الجمهور ـ الذي هو في معظمه من أولياء أمور التلاميذ ـ وننتزع منه تصفيقًا حادًّا علي جهدنا الذي استمر عدة شهور، وفي حقيقة الأمر لم يكن موضوع الجمهور والتصفيق يعنيني كثيرًا، حيث كنت أنتظر العرض علي أحر من الجمر، لسبب ربما لم يخطر ببال زملائي، ولا حتي ببال مخرج العرض المؤمن بموهبتي!

كنت في فترة ولعي ـ غير المبرر ـ بالتنكر، قد واجهت مشكلة عويصة تتعلق بكيفية لصق الشارب واللحية علي وجه الممثل، جربت استخدام الصمغ، لكنه سبب لي التهابًا حادًا في البشرة، لذلك فقد كنت أنتظر يوم العرض لا من أجل جمهور ولا تصفيق، بل لأعرف كيف سيقوم الماكيير بلصق الشوارب علي وجوهنا، وعندما جاء اليوم الموعود، كنت في طليعة الممثلين الذي تقدموا لارتداء ملابس الشخصية وعمل الماكياج، وجلست أمام الرجل وعيني علي حقيبته المليئة بالشوارب واللحي الصناعية، وعندما وضع المادة اللاصقة أسفل أنفي، كانت رائحتها نفاذة جدًا، في هذه اللحظة فقط شعرت بأنني ضئيل جدًا، وبأن ما أنجزته في عالم التنكر مقتديًا بشبيهي «تختخ» بطل «المغامرون الخمسة»، هو

شيء لا يذكر أمام علم وخبرة الماكيير الذي أجلس أمامه الآن، والذي أجتهد في مهنته، وتبحر في علم التنكر، حتي توصل إلي هذه المادة السحرية التي جعلت الشارب ثابتًا وكأنه قد نبت بالفعل تحت أنفي..

بعد أن أنهيت عمل الماكياج، رحت أهز رأسي يمينًا وشمالًا لأتأكد من ثبات الشارب، فشعرت بأن ما كنت أفعله أثناء التدريب علي التنكر ما هو إلا لعب ولهو، وتذكرت ساعتها يوم أن أتممت عملية التنكر بعد جهد طويل، ودخلت متسللًا إلي غرفة أختي لكي أفاجئها وأبث الرعب في قلبها، وفي لحظة دخولي سقط شاربي بسبب رداءة اللصق، ولكم أن تتخيلوا إحساسي بالفشل وقتها، صحيح أن فشلي يعود إلي نقص الإمكانات، لكنه فشل علي أي حال!

أما الآن، فشاربي راسخ في مكانه، والتجاعيد المرسومة علي وجهي دقيقة، ليست كتلك التي كنت أرسمها بأقلام الألوان فتسيل مع أول حبة عرق وتفسد عليّ خطتي، كم كنت سعيدًا بالعمل مع هذا الماكيير المبدع، الذي أثبت لي أن علم التنكر بحر واسع، أوسع كثيرًا مما تخيلت..

انتهي العرض المسرحي، محققًا نجاحًا كبيرًا، صفق لنا الجمهور طويلًا، مع ملاحظة أن الجمهور كله، من المدرسين،

وأولياء أمور التلاميذ..

بدأنا الإعداد لعرض مسرحي ضخم ـ هكذا وصفه المخرج ـ لمسرحية اسمها «الجبان»، وكنت أنا المرشح لأداء دور «الجبان» بالطبع!

تدور المسرحية حول شاب يلتحق بالخدمة العسكرية، ويواجه صراعًا نفسيًا مريرًا بسبب جبنه، وعدم قدرته علي مواجهة احتمال دخول الجيش في حرب، وبدأنا البروفات بالفعل، كان ذلك عام 1981، الذي شهد مقتل الرئيس أنور السادات في العرض العسكري، وبعد الحادث شهدت مصر إجراءات أمنية مكثفة، من بينها الحظر التام لبيع أو شراء أو استخدام الملابس العسكرية، وقد أبلغنا المخرج بكل أسي، أن العرض من المستحيل أن يتم تنفيذه في هذه الظروف، وكانت صدمة عنيفة، شعرت معها بأن رحلتي في المسرح قد انتهت قبل أن تبدأ..

خلال فترة استعدادنا للعرض، حاولت التقرب من الماكيير الفنان لأعرف منه سر المادة العجيبة ذات الرائحة النفاذة التي يستخدمها في عمله، لكنه عاملني بجفاء، واستعلاء يليق بمكانته وعلمه، ورغم فشلي في الحصول علي أي معلومة منه، إلا أنني لم أيأس، وظللت أبحث وأتقصي، وإذا كان حلمي بتحقيق المجد علي المسرح صار مهددًا، فحلمي بالتوصل إلي أسرار علم التنكر

ما زال قائمًا، وقد أسفرت رحلة البحث عن حقيقتين، الأولي هي أن الماكيير الفنان، مجرد موظف بسيط في الإدارة التعليمية، يهوي المسرح مثلنا، أما الثانية فهي أن المادة العجيبة التي ظللت سنوات أبحث عن سرها، هي مادة «الكولة»، التي تستخدم في لصق جلود الأحذية، والتي أصبحت الآن أشهر من نار علي علم، بعد أن أدمن الآلاف من أطفال الشوارع استنشاقها!

15

تابعت المسلسل بشغف، أعجبني أداء نور الشريف وتوحدت تمامًا مع شخصيته في المسلسل «أحمد بن شبيب»، وعلي خلفية القتيل الذي شاهدته، وعفريته الذي أخشي أن ينتقم مني، أصبحت أسيرًا لأجواء التشويق والإثارة، في الواقع بسبب القتيل وعفريته، وفي الخيال بتوحدي مع قصة أحمد بن شبيب ومتابعتي لمعاركه، ومواجهاته مع قوي الشر والظلم، تمنيت في لحظة أن أصبح قويًا وشجاعًا مثله، أن أكبر وأحقق حلمي بأن أكون زعيمًا لمطاريد الجبل!

هل ثمة متعة في أن تري قتيلًا غارقًا في دمه؟!

بالطبع لا، إذن لماذا سيطر عليَّ الفضول الشديد، عندما شاهدت من شرفة منزلنا رجالًا يجرون في كل اتجاه، ونساء يصرخن وقد سيطر الفزع عليهن، بسبب حادث ثأر أسفر عن قتل شخص بالقرب من بيتنا؟

كنت خائفًا كأي طفل، لكنني لم أستطع مقاومة فضولي، خرجت إلي الشارع وكان الوقت متأخرًا، الطريق مظلم، وأنا أسير مع السائرين إلي حيث موقع الجريمة، وصلت لأجد شخصًا ضخمًا ملقي علي الأرض ينزف ويئن بعد أن اخترق الرصاص قلبه، لم أتمكن من النظر إليه طويلًا فقد أصابني المشهد بالفزع، عدت جريًا إلي بيتنا، خائفًا مرتعشًا، ليس من منظر القتيل فحسب، لكن من عفريته الذي سوف يخرج بعد قليل ليسيطر علي مسرح الجريمة، ويوزع الأذي علي المارة دون تمييز!

عقيدة الناس آنذاك تؤكد أن القتيل بعد موته يخرج قرينه من الجن ويظل موجودًا في مكان موته، لذلك فإن الناس ـ كبارًا وصغارًا ـ يتحاشون المرور في الأماكن التي شهدت جرائم قتل، خاصة بعد أن

ينتصف الليل، ويحذر الأمهات أبناءهن من شوارع وطرق معينة، شهدت قبل سنوات طويلة حوادث قتل، وفي الليل يكون المكان الذي شهد مصرعهم مسرحًا للجن والعفاريت، ويدعم الأمهات نصائحهن بقصص مرعبة عن أشخاص تعرضوا للأذي، وبعضهم أصيب بالجنون!

في الفترات التي تشهد القرية حوادث قتل، تنشط الحكايات والأساطير، يضرب الناس الأمثال بأشخاص أصيبوا بلوثة عقلية، ربما لسبب لا نعرفه، وربما دون سبب، لكن الخيال الشعبي ينسب مآسي هؤلاء إلي الجن والعفاريت، وهنا يجد المشعوذون والدجالون سوقًا رائجة لعملهم، سمعت وأنا صغير أسطورة الأطفال الذين كانوا يسيرون في الطريق، وصادفوا رجلًا سألوه عن شيء ما، فرفع جلبابه وكشف عن ساقه فإذا هي ساق «معزة»، وهي الأسطورة التي استخدمها محمد هنيدي بعد ذلك في فيلم «جاءنا البيان التالي»، وسمعت حكايات أخري عن جنية سمَّاها الناس «أم الصدور»، وذلك لأنها تمتلك صدرًا كبيرًا جدًا، وعندما تعترض طريق أي شخص سيئ الحظ، تضربه بصدرها فيظل يعاني من «المس» طوال حياته!

ظللت فترة طويلة أتذكر مشهد القتيل الذي رأيته بمجرد مروري ـ ليلًا أو نهارًا ـ في المكان الذي شهد مصرعه، وعانيت خلال نفس

الفترة من النوم المتقطع والكوابيس..

تصادف وقتها أن التلفزيون المصري كان يذيع مسلسل «مارد الجبل» بطولة الفنان نور الشريف، الذي تدور أحداثه حول شاب يتعرض للظلم في قريته فيهجرها ليعيش مع «مطاريد الجبل»، ثم ينزل راكبًا فرسه لينتقم ممن ظلموه ومنعوه من الزواج بحبيبته، تزامن ذلك مع بداية رحلتي مع فن التنكر، ثم حبي للتمثيل..

تابعت المسلسل بشغف، أعجبني أداء نور الشريف وتوحدت تمامًا مع شخصيته في المسلسل «أحمد بن شبيب»، وعلي خلفية القتيل الذي شاهدته، وعفريته الذي أخشي أن ينتقم مني، أصبحت أسيرًا لأجواء التشويق والإثارة، في الواقع بسبب القتيل وعفريته، وفي الخيال بتوحدي مع قصة أحمد بن شبيب ومتابعتي لمعاركه، ومواجهاته مع قوي الشر والظلم، تمنيت في لحظة أن أصبح قويًا وشجاعًا مثله، أن أكبر وأحقق حلمي بأن أكون زعيمًا لمطاريد الجبل!

بدأت أقلد «أحمد بن شبيب»، أرتدي ملابسه، أغطي وجهي بحيث لا تظهر منه سوي عينيَّ، أختلي بنفسي، وأعيد تمثيل مشاهد المسلسل، لكن بقيت المشكلة أنني لا أمتلك حصانه القوي!

لا بأس، أجرب استبدال الحمارة بالحصان، ولن يختلف الأمر كثيرًا، ركبت «الحمارة»، لكنها ـ فيما يبدو ـ كانت علي وشك الولادة، تتحرك ببطء، تسير ـ وأنا فوق ظهرها ـ مطأطأة الرأس، تنقل ساقيها

بصعوبة، شعرت بخيبة الأمل، كيف لزعيم مطاريد الجبل أن يركب هذه الحمارة البائسة؟ قلت لنفسي لو كان فرس «أحمد بن شبيب» مثل حمارتي تلك لقُتل في أول مواجهة مع خصومة!

لجأت إلي الحمار الذكر، فهو رغم شراسته وضخامته التي جعلتني أقف أمامه مترددًا، يعتبر الحل الأمثل لهذه المشكلة، ارتديت جلبابًا شبيهًا بجلباب ابن شبيب، غطيت وجهي بشال لأصبح ملثمًا مثله، ركبت الحمار خائفًا منه في بداية الأمر، لكنني بعد لحظات تخلصت من خوفي، انطلقت في رحلة إلي الحقل، كانت نظرات الناس إليَّ عادية، فليس في الأمر غرابة، طفل يركب حمارًا، صحيح أنه «ملثم» دون داع، لكن ربما يخشي علي نفسه من البرد!

أنا الآن أحمد بن شبيب، نفس قوته وعنفوانه، صدره المفرود، شجاعته واقتحامه للمجهول، تنقصني فقط البندقية المحشوة بالرصاص لأصبح بحق زعيم مطاريد الجبل..

كان الحمار هو الآخر متألقًا، وكأن عدْوَي التقمص قد انتقلت إليه مني، فمثلما تلبستني روح أحمد بن شبيب، تلبست الحمار روح حصان زعيم المطاريد، فصار يجري بي، لا تكاد قدماه تلمسان الأرض، وأنا علي ظهره مثل طائر يرفرف بجناحيه!

وصلنا إلي أرضنا التي يعرفها الحمار بالطبع، والتي يفصلها عن الطريق مجري مائي صغير، ولأن الحمار كان علي نفس تألقه، قرر في

غفلة مني أن يقفز علي المجري المائي بدلًا من أن يعبره بخطوات بطيئة كما هي العادة، قفز مثل حصان سباق مدرب علي الطير فوق الحواجز، قفز ولم يتوقف بل سار بنفس سرعته وخطواته الواسعة، بينما طرت أنا من فوق ظهره لأقع علي الأرض..

سقط الفارس..

واختلطت صرخة زعيم مطاريد الجبل بضحكات ساخرة من الفلاحين الذين شاهدوا نهايته!

16

كيف أختار أصدقائي؟ كيف أتنبأ بردود أفعالي في مواقف معينة؟ كيف أفسر اقترابي من شخص، ونفوري من شخص آخر دون سبب واضح؟ والأهم من ذلك كله، كيف أحب وأتزوج؟ كيف أتوقع حجم التوافق بيني وبين فتاة ما؟ وإذا أحببت فكيف لحبيبتي أن تفسر مواقفي وردود أفعالي؟ ما يسعدني وما يحزنني، ما أحبه وما أكرهه، كيف أصبح فتي أحلام من يختارها قلبي، وأنا رجل بلا برج؟!

أنا من مواليد 30 سبتمبر 1968، تاريخ مناسب جدًا لطفل يتقدم للالتحاق بالمدرسة، التي تحسب عمر التلميذ في الأول من أكتوبر، أنا مثل ملايين الأطفال المصريين الذين قررت أسرهم ـ بضمير مطمئن ـ استخراج شهادات ميلاد مزورة لهم، أو في أفضل الفروض، زورت يوم ميلادهم ليكون مناسبًا لسن الالتحاق بالتعليم، كانت تلك الأسر بالتأكيد في حالة من السرور والسعادة عندما نجحت عملية التزوير، وكانت إدارات المدارس تعلم بالطبع أن تزويرًا قد تم، ووافقت، وقبلت الأوراق، وكان واضع القوانين واللوائح يعلم تمامًا أن الناس سوف تتحايل علي النصوص التي وضعها، كل الأطراف كانت تعلم، وافقت وباركت، ما عدا صاحب الشأن، الطفل!

أنا واحد من هؤلاء، تقول أوراقي الرسمية أنني ولدت في الثلاثين من سبتمبر، لكني علمت ـ ولا أذكر كيف علمت ـ أن مولدي كان في يوم آخر، وربما في عام آخر، وكم كانت صدمتي، بعد سنوات عشت فيها علي اعتبار أنني أنتمي إلي برج الميزان، أقارن صفاتي بما

ورد عن الميزان في علم الأبراج، فألاحظ أنني مختلف كثيرًا، فأقنع نفسي بأن موضوع الأبراج في الأصل مجرد دجل، لا أساس له، وعندما عرفت بواقعة تاريخ مولدي المزور، زاد فضولي بشكل كبير لمعرفة التاريخ الحقيقي، واعتبرت أن الاختلاف بيني وبين صفات برج الميزان هو أمر طبيعي، لا يعود ـ كما كنت أظن ـ إلي أن علم الأبراج هو نوع من الدجل والشعوذة، بل لأنني أبحث عن نفسي في المكان الخطأ، ومن ثم فلو عرفت تاريخ مولدي الحقيقي، سوف يكون الأمر مختلفًا تمامًا..

كيف أختار أصدقائي؟ كيف أتنبأ بردود أفعالي في مواقف معينة؟ كيف أفسر اقترابي من شخص، ونفوري من شخص آخر دون سبب واضح؟ والأهم من ذلك كله، كيف أحب وأتزوج؟ كيف أتوقع حجم التوافق بيني وبين فتاة ما؟ وإذا أحببت فكيف لحبيبتي أن تفسر مواقفي وردود أفعالي؟ ما يسعدني وما يحزنني، ما أحبه وما أكرهه، كيف أصبح فتي أحلام من يختارها قلبي، وأنا رجل بلا برج؟!

فكرت في أن أسأل أبي ـ رحمة الله عليه ـ عن تاريخ مولدي الحقيقي، لكني تحسبت لرد فعله الذي لن يكون مرضيًا لي في كل الأحوال، فهو إما لن يتذكر ما أطلبه، وإما أنه سيتعامل مع الموضوع باستخفاف لأنه لن يقتنع بأهميته بالنسبة لي، فخطرت لي الفكرة الأفضل وهي أن أفتح حوارًا حول الموضوع مع أمي، وهي الأولي

بالسؤال بطبيعة الحال، لأنها التي ولدتني!

بعد لف ودوران وأسئلة غير مباشرة، عرفت من أمي أنني ولدت في الشتاء، ورغم صدمتي لبعد هذا التاريخ المحتمل عن تاريخ مولدي الرسمي بفصل كامل، إلا أنني شعرت أنني اقتربت خطوات من الهدف، الشتاء يعني أن التاريخ الذي أبحث عنه محصور فيما بين ديسمبر وفبراير، إذن استبعدنا تسعة شهور من العام، وانحصر البحث في ثلاثة فقط والحمد لله، لذلك فقد استثمرت هذا النصر الجزئي في بحث الأبراج التي تضم مواليد هذه الفترة، وقلت لنفسي ربما أستطيع تحديد أكثر هذه الأبراج قربًا من شخصيتي، لكنني فشلت!

سلمت أمري لله، وقررت أن أتعايش باعتباري «ساقط برج»، وهونت الأمر علي نفسي، لا سيما بعد أن تجاوزت مرحلة الطفولة والمراهقة، وأصبح الموضوع لا يشغلني كثيرًا، لكن حتي بعد أن تقدمت في العمر، كنت أتذكر تلك القصة، ويعاودني الفضول، وعندما يسألني أحدهم ـ أو إحداهن ـ عن البرج الذي أنتمي إليه، كنت أشعر بنقص ما، وأرد بخجل:

ـ مواليد آخر سبتمبر.. لكن معرفش برجي الحقيقي إيه!

سنوات طويلة مرت، ولم يعد الأمر يخطر ببالي كثيرًا، حتي توفي أبي ـ رحمه الله ـ وكان عمري وقتها 36 عامًا، وبعد أيام العزاء، بدأنا

أنا وشقيقي فرز الأوراق التي تركها أبي والتي تتعلق بحسابات الميراث، وبينما أقلب أوراقًا كثيرة، وقعت عيني علي صورة من شهادة ميلادي، فتحتها، فإذا التاريخ المدون بها ليس آخر سبتمبر كما تقول أوراقي الرسمية، زادت ضربات قلبي، وشعرت أن بيني وبين الحقيقة جزءًا من الثانية، نعم ها هو التاريخ الحقيقي ليوم ميلادي، العام 1969، إذن أنا أصغر من عمري الرسمي بأربعة شهور، يبدو أنهم أضافوا الشهور الأربعة حتي لا أتأخر عامًا كاملًا عن الدراسة، واليوم، يوم مولدي الذي الذي ضاع مني طوال هذه السنوات، إنه الأول من فبراير..

نعم .. عاش برج الدلو العظيم..

17

كانت ليلة عصيبة، لم أستطع النوم، غلبني الحزن وحطت علي قلبي كآبة من فقد حبيبة عمره، كيف لسامح أن يفعل ما فعل؟ هل تتساوي الكفتان، بين صداقتنا من جانب، وكشكول المواد الاجتماعية من جانب آخر؟ لماذا كنت ساذجًا إلي درجة أنني لم أكتشف حقيقة من اعتبرته صديق عمري، وماذا عن حقي الضائع وكرامتي المهدرة عندما تعمد إذلالي، وبت كما لو كنت عاجزًا عن دفع ثمن المجموعة التي أتسول كشكولها منه؟

مطلوب صديق..

هذا هو شعار أي طفل يبدأ مرحلة الدخول في علاقات اجتماعية، والشعار ذاته يتحول عند أغلبنا ـ في هذه السن ـ إلي مشكلة ضخمة، فالصديق بالمواصفات المطلوبة غالبًا ما يكون غير متوافر، أو إن شئنا الدقة يكون موجودًا لكننا لا نصل إليه بسبب سوء الاختيار، وانعدام النضج في تقييم الأشخاص المحيطين بنا..

مثل أي طفل، كان لي أصدقاء كثيرون، صدمت في غالبيتهم، والقليل منهم من استمرت علاقتي به، وبعضهم نسيت اسمه فيما بعد!

عرفت المؤدب المحترم، والمتردد الخجول، والجريء المتهور، المتفوق الناجح، والمتشرد الضائع، واللص الذي يبدأ طريق الجريمة، وشارب المخدرات، والمتدين، الذكي الموهوب، والغبي المتخلف، أحيانًا أحاول حصر من عرفتهم فأفشل تمامًا، وتتملكني الدهشة عندما يتصادف أن ألتقي بأحدهم، كانت بيننا عشرة طويلة، واعتقدنا لفترة أننا أصدقاء، لكن عندما نلتقي بعد كل هذه السنوات، يكون اللقاء باردًا وباهتًا وسخيفًا، نردد عبارات المجاملة المعروفة، وكلانا

يتمني من قلبه ألا يطول الحديث، وبالفعل ينتهي اللقاء بعد دقائق!

أمضيت مرحلة التعليم الابتدائي دون صديق تقريبًا، كان إحساس الوحدة يكاد يقتلني، حاولت أن أنتقي زميلًا أو اثنين علي طريقة «أحسن الوحشين» لأقترب منهم، فشلت مع أحدهم لأنه لم يكن نظيفًا، ولو بحثت عن تعبير أكثر دقة سأقول عنه وضميري مستريح تمامًا أنه «قذر»، وأمام إغراء المودة التي كان يكنها لي، وبحثي عمن ينقذني من وحدتي، قاومت كثيرًا لتستمر صداقتنا، لكن إحساس الاشمئزاز منه غلبني، أما الآخر فقد توسمت فيه خيرًا، وبدأت علاقتنا تتطور من زمالة إلي ما يشبه الصداقة، حتي انتهيت من التعليم الابتدائي في مدرسة القرية، وانتقلت إلي مدرسة إعدادية في المدينة، فعاهدته علي أن نتواصل دائمًا عن طريق الخطابات..

كتبت إليه بالفعل رسالتي الأولي، وصفت فيها مدرستي النظيفة «مقارنة بمدارس الريف»، وزملائي الجدد، حكيت له عن المدرسين، وكيف أن لكل مادة أكثر من مدرس، فهناك ثلاثة للغة العربية، وثلاثة للعلوم، واثنان للرياضيات، قلت له إنني سعيد بوجود مكتبة كبيرة يمكن أن أستعير منها ما أشاء من كتب، وختمت رسالتي بعبارات الحب والاحترام، ووقعتها بالتوقيع السائد في هذه الأيام «صديقك المخلص للأبد»، وكتبت علي المظروف اسمه وعنوانه، مزيلًا بعبارة شهيرة يعرفها أبناء جيلي، كنا نعتقد أن الرسالة لن تصل بدونها،

عبارة «شكرًا لساعي البريد»، وأرسلت الرسالة، منتظرًا بلهفة رده عليه، وبعد فترة وصلني رده في خطاب علي المدرسة، استلمته وإحساس الفخر يملأ قلبي، لأنني التلميذ الوحيد تقريبًا الذي تأتيه رسائل من البريد علي عنوان المدرسة..

قرأت الرسالة عدة مرات، فوجئت بصديقي بعد السلام والأشواق يعدد لي مزايا المدرسة الإعدادية في قريتنا، ويزيد علي ما قلته في رسالتي، بحيث تبدو مدرسته أفضل كثيرًا، فهناك أربعة مدرسين للغة العربية يتناوبون التدريس للفصول «مدرستي بها ثلاثة»، أما العلوم فلها خمسة مدرسين »بدلًا من أربعة عندي»، وإذا تطرقنا للمكتبة فهي موجودة بالفعل لكن صديقي لا يحب القراءة، ويفضل عليها الرياضة التي يمارسها في ملعب مدرسته الواسع «مدرستي ذات ملعب صغير»، هل فهم صديقي من رسالتي إليه أنني أمارس الاستعراض، أو أتعالي عليه بصفتي الجديدة كتلميذ في مدرسة المدينة، فقرر أن يعاملني بالمثل بل ويزايد عليّ؟، لا أعرف، كل ما أذكره أنني شعرت بغصة، لم يكن عمري وقتها يسمح بتفسير سببها علي وجه الدقة، ومازلت أحتفظ برسالة صديقي التي وقعها أيضًا بعبارة «صديقك المخلص للأبد»، والتي لم أرد عليها حتي الآن!

صحيح أنني انتقلت إلي المدينة، لكنها بالطبع ليست المدينة

الفاضلة، وبعد أيام انتهي إحساس الانبهار الذي سيطر علي طفل ريفي مثلي، بل وانقلب الانبهار إلي كراهية، ونقمة، حيث لم تنجح المكتبة في إنقاذي من الإحساس الرهيب بالوحدة، وعندما اقتربت أكثر من زملاء مدرسة المدينة، اكتشفت أنهم لا يختلفون كثيرًا، فيهم النظيف والقذر، المتفوق والفاشل، الذكي والغبي، زد علي ذلك أن فيهم نموذجًا جديدًا كنت أراه لأول مرة، التلميذ البلطجي..

اسمه شريف، ضخم الجثة، علي وجهه ـ رغم حداثة السن ـ علامات الشراسة والعنف، كنا جميعًا نتحاشي الاقتراب منه، أو التعامل معه، وكان هو فيما يبدو سعيدًا جدًا بسلوكنا الذي يعبر عن اعتراف ضمني بتخاذلنا أمام قوته وشراسته، الغريب أن شريف كان يختار ضحيته بعناية شديدة، فهو لا يصطدم مع زميل قوي البنية، حتي لو بدا عليه الخوف والجبن، والقاعدة نفسها تنطبق علي المدرسين الذين لم ينجُ بعضهم من قلة أدبه وسخريته والضوضاء التي يحدثها طوال الوقت، فهو يختبر قوة شخصية المدرس، وإذا وجد منه لينًا أو ضعفًا، فالويل له، وقد شاهدنا جميعًا معركة استمرت لعام دراسي كامل بين البلطجي وزميل لنا يدعي «مهران» ..

كان مهران نحيفًا إلي درجة ملفتة، حباه الله جسدًا هزيلًا، وقامة قصيرة، وجبنًا وخوفًا لا يليق إلا بفأر، وبهذه المواصفات كان مهران ضحية مثالية لشريف، لا أعرف سببًا للخلاف بينهما، ولا أظن أنه

كان هناك سبب للخلاف من الأصل، فقط أذكر أن شريف كان ينتظر مهران يوميًا خارج المدرسة ليضربه، أو يسبه بأفظع الشتائم، أو يأخذ منه حقيبته ويفتش محتوياتها، بينما مهران يحاول بكل السبل أن يكف أذي شريف بعبارات من نوعية «أنا مش هرد عليك، هقدم شكوي للناظر، هقول لأبويا ييجي لك هو وأخواتي، أنا مش غلبان أعمل زيك بس أنا مؤدب .....»

كانت تبريرات مهران بالطبع غير مقنعة للطرف الآخر «شريف»، ولا لنا جميعًا بوصفنا متفرجين، وكانت المعركة تنتهي كل مرة بتدخل أصدقاء شريف وأعضاء شلته الذين يتهمونه بالاستقواء علي مهران، لأنه قصير ورفيع ومش قده، كانوا يقولون ذلك لزعيم شلتهم بشكل مسرحي، وهم يتغامزون ويتضاحكون، كأنهم يقصدون من تدخلهم إهانة مهران وليس إنقاذه، أما شريف فكان يستجيب علي مضض لوساطتهم ويعفو عن مهران الذي يحمل حقيبته وينصرف حزينًا وبائسًا، ربما كنت الوحيد الذي لمح في عيني مهران دموعًا يحاول إخفاءها، وربما كنت أكثر المتعاطفين معه، أو ربما الوحيد الذي يشعر بألمه، لكنني لم أتدخل يومًا لإنقاذه، واكتفيت بأن أقف مع الأطفال المتفرجين، وهو ما يؤلمني حتي الآن!

كان يومًا مشهودًا، استولي شريف علي حقيبة مهران كما هي العادة، لكن مهران كان متشبثًا بالحقيبة بشكل كبير مقارنة بالمرات

السابقة التي حدث فيها نفس الشيء، وهو ما أثار دهشتنا ودهشة شريف حتي نجح في استخلاص الحقيبة وفتحها بينما الفضول يسيطر علي الجميع، راح شريف يعبث بمحتويات الحقيبة حتي أخرج شيئًا أصابنا جميعًا بالذهول، سكين كبيرة أخفاها مهران بين الكتب، رحنا نتبادل النظرات المتسائلة، ومهران يرتعش خوفًا، ورغم ما أبداه شريف من رباطة جأش، وثبات انفعالي، إلا أنني لمحت نظرات الخوف في عينيه، لكنه سرعان ما سيطر علي الموقف، فشرع السكين في وجه مهران، وهو ينظر لأعضاء شلته قائلًا: «سيبوني عليه»، وكأنه يعطيهم الإشارة لمنعه، وقد فعلوا، واكتفي هو بصفع مهران، ناصحًا إياه بألا يحمل سلاحًا طالما أنه لا يقدر علي حمايته ..

مهران وهو في قمة ارتباكه وخوفه وقلقه، أخذ حقيبته وآثار الضرب علي وجهه وانصرف مسرعًا، تُري ماذا كان مهران ينوي، هل فكر في قتل شريف لكن خطته لم تكتمل؟ أو أنه أحضر السكين فقط ليثبت فؤاده، ويشعره بأنه قادر علي المواجهة حتي القتل، ويمنحه الإحساس بالأمان حتي لو كان أمانًا زائفًا؟

في اليوم التالي ونحن نستعد لمشاهدة مباراة جديدة بين شريف ومهران، لاحظت شيئًا غريبًا، مهران أمام المدرسة، ينتحي جانبًا مع واحد من شلة شريف، وبمجرد أن رآني أشار لي لأنضم إليهما، ذهبت بالطبع، لأجد مهران وقد انطلق في وصف مشاعره لحظة أن

سخر منه زملاؤنا المسيحيون، جرجس ويوسف، وأن كل ما حدث بينه وبين شريف من أول العام كوم، وشماتة النصاري فينا كمسلمين كوم آخر، كان مهران متأثرًا، ومتقمصًا، وكان من الطبيعي أن أصدقه، ربما لأنني في الأصل متعاطف معه، لكن غير الطبيعي أن يقتنع صديق شريف بحديثه، فتحمر عيناه غضبًا، وترتعش أوصاله ندمًا علي ما وصل إليه حالنا كمسلمين، يضرب بعضنا بعضًا، بينما النصاري جبهة واحدة، وما إن انتهي مهران من حديثه حتي وجدت صديق شريف ـ لا أذكر اسمه ـ يمسك يد مهران، ويربت علي كتفه بحميمية، مؤكدًا له أن الموضوع قد انتهي، وأن شريف لن يقترب منه مرة أخري، بل وزاد قائلًا: «ولو عوزت أي حاجة قولي» ..

وقتها صدقت مهران، وقدرت رجولة صديق شريف وغيرته علي الإسلام، ولكن عندما مضي العمر، واسترجعت الذكري، اكتشفت أنني كنت أمام أول تجربة أراها أمامي لاستغلال الدين في السياسة، والمذهل أنها كانت تجربة ناجحة وحققت هدفها المنشود، بشكل ربما لم يحلم به مهران نفسه!

***

وأخيرًا وجدت صديقًا..

سامح، يشبهني في الملامح إلي حد أن البعض كان يعتقد أننا أشقاء، أسرته طيبة، كان يستضيفني في منزله لنذاكر سويًا، وكانت

أمه سيدة لطيفة ترعانا وتقدم لنا الطعام والشاي، ومرت فترة طويلة تقاربنا فيها أكثر، أصبحت أعرف عنه كل شيء، وصار يعرف كل تفاصيل حياتي..

قبل أن أعرف سامح، كنت مازلت أبحث عن شخص يصلح لأن يكون صديق العمر، بالمواصفات التي أقرأها في الروايات وأشاهدها في أفلام الأبيض والأسود..

كان سامح مهذبًا، مهتمًا بالدراسة، وتحرص أسرته علي متابعة التزامه التعليمي ومستوي تحصيله، في هذه الفترة كنت أعيش مع شقيقي في مسكن بسيط في مدينة ملوي، ولأني كنت بعيدًا عن أسرتي فقد وجدت في منزل سامح الملجأ والملاذ، هناك كنت أعوض ما أفتقده من الدفء الأسري، والشعور بونس الأهل، وهو ما ساهم في أن تتوطد علاقتنا بشكل سريع جعلني أتيقن تمامًا من أن سامح هو صديق العمر بالمواصفات التي أبحث عنها..

لم يكن التعليم وقتها معتمدًا كما هو الآن علي الدروس الخصوصية كما أشرت من قبل، وكان أكثر الطلاب ضعفًا في التحصيل يمكن أن يلجأ إلي المدرس الخصوصي في مادة واحدة أو مادتين علي الأكثر، كما أن المدارس تقيم دائمًا مجموعات تقوية لكل مادة بأسعار رمزية، ولم يكن أيٌّ منا يجرؤ علي أن يطلب من أسرته دفع تكلفة درس خصوصي في كل المواد، وكان الطلاب يتبادلون فيما بينهم كشاكيل

مجموعات التقوية، بحيث يستفيدون من الشرح الإضافي لكل المواد ويدفع الواحد منهم تكلفة مادة أو مادتين فقط..

وقد فعلت مثلهم وسجلت اسمي في مادتين، وقررت أن أطلب كشكول المواد الاجتماعية «التاريخ والجغرافيا» من صديقي سامح..

لاحظت أن سامح بدا مرتبكًا عندما طلبت منه كشكول المجموعة الخاص به، ولأنه كان منظمًا وصاحب خط جميل وأنيق فقد فسرت ارتباكه بأنه يخشي علي الكشكول من أن يتمزق أو يتسخ فطمأنته تمامًا، لكنه ظل علي ارتباكه وراح يسوِّف ويماطل، مرة بأنه يحتاج الكشكول ليراجع ما فيه، ومرة أخري بحجة أنه نسيه في المدرسة، وقد أثار موقفه الغريب حيرتي، فواجهته وطلبت منه تفسيرًا لما يفعله معي بعد هذه العشرة الطويلة، ولم يجد هو مفرًا من أن يصارحني بأنه لن يعطيني الكشكول، سألته عن السبب، فقال: إنه يدفع ثمن المجموعة ولا يحق لي أن أستفيد من شرح لم أدفع مقابله شيئًا، كان يقول ذلك مترددًا ومرتبكًا، قلت له: إن كل زملائنا يفعلون نفس الشيء ليستفيدوا جميعًا دون أن يدفعوا مبلغًا كبيرًا من المال، فرد عليّ بأنه مختلف عنهم، لا يحب أن يأخذ من أحد شيئًا، ولا يعطي في المقابل، فاجأني الرد، وشكرته مغالبًا خجلي، وانصرفت..

كانت ليلة عصيبة، لم أستطع النوم، غلبني الحزن وحطت علي قلبي كآبة من فقد حبيبة عمره، كيف لسامح أن يفعل ما فعل؟،

هل تتساوي الكفتان، بين صداقتنا من جانب، وكشكول المواد الاجتماعية من جانب آخر؟، لماذا كنت ساذجًا إلي درجة أنني لم أكتشف حقيقة من اعتبرته صديق عمري، وماذا عن حقي الضائع وكرامتي المهدرة عندما تعمد إذلالي وبت كما لو كنت عاجزًا عن دفع ثمن المجموعة التي أتسول كشكولها منه؟

في اليوم التالي توجهت إلي منزل سامح، كان لابد أن أواجهه بكل ما في نفسي، وأحصل منه علي ردود شافية، كأن يعتذر لي مثلًا ويقسم أن والده أو والدته هو من أمره بألا يعطي كشكوله لأحد أيًا كان، وهو لا يعصي لهما أمرًا، وصلت إلي المنزل لكن نفسي لم تطاوعني لأصعد إلي شقة سامح كما هي العادة، ناديت عليه من الشارع، نظر من شرفة غرفته فطلبت منه النزول، بعد دقائق كان واقفًا أمامي، لم يكن مرتبكًا أو محرجًا، لم يبرر ما فعله معي، لم يتحجج بأوامر والده، تعامل معي كأن شيئًا لم يحدث، وراح يحدثني في أمور عدة وأنا صامت تمامًا، نظرت إليه مليًا ثم قلت له:

ـ سامح أنت وسخ وابن كلب.

وقبل أن يفيق من الصدمة، صفعته بكل قوتي، واستدرت منصرفًا بينما هو ينظر إليَّ مذهولًا، ويتحسس موضع الصفعة!

ـ 18 ـ

ـ حد جاب فلوس الحصة؟

ـ لأ

ـ طيب ركزوا معايا لأن الدرس ده مهم

في البداية، كنا نشعر بالخجل من رد الفعل المهذب للأستاذ عادل مدرس اللغة الفرنسية، ومع تكرار موقفه ورد فعله الهاديء، اعتدنا علي الأمر، وأصبح من الطبيعي أن نفضل شراء السجائر، علي دفع أجر درس الأستاذ عادل، وبينما يواصل هو تعامله الأخلاقي المحترم، كنا نحن في المقابل، نرد جميله بشراء المزيد من السجائر!

نموذجان مختلفان إلي حد التناقض، مدرس اللغة الفرنسية المسيحي، الأستاذ عادل، يعطينا درسًا خصوصيًّا مجانًا، ومدرس اللغة العربية، الأستاذ أحمد، يساومنا علي درجات أعمال السنة، لكي يجبرنا علي الالتحاق بمجموعات الدروس الخصوصية في بيته!

الأول كان رقيقًا، مهذبًا، حريصًا علي نجاح تلاميذه، لم يكن يهتم بمظهره كثيرًا، ونادرًا ما رأيته مهندمًا أو أنيقًا، لكن في قلبه، طاقة حب وعطاء وكرم، تجعل تلاميذ السوء أمثالنا يظنونه ساذجًا أو مجنونًا!

كنا نذهب إليه في موعد الدرس، يسألنا سؤالًا واحدًا يتكرر كل مرة، حتي أصبحنا من فرط تكراره، نجيب عنه دون اهتمام، وربما لا نرد من الأساس:

ـ حد جاب فلوس الحصة؟

ـ لأ.

ـ طيب ركزوا معايا لأن الدرس ده مهم..

في البداية، كنا نشعر بالخجل، ومع تكرار موقفه ورد فعله

المهذب، اعتدنا علي الأمر، وأصبح من الطبيعي أن نفضل شراء السجائر، علي دفع أجر الأستاذ عادل، وبينما يواصل هو تعامله الأخلاقي المحترم، كنا نحن في المقابل، نرد جميله بشراء المزيد من السجائر!

اشتهر الأستاذ عادل في أوساط التلاميذ بأنه لا يطلب أجرًا، فكان التزاحم عليه شديدًا، فهو إلي جانب كرم أخلاقه غير المعهود، متمكن من اللغة الفرنسية، ولا أعرف لماذا كان الرجل كريمًا إلي هذا الحد، مع تلاميذ يبدو عليهم من النظرة الأولي أنهم يستغلون طيبة قلب أستاذهم، وترفعه عن الماديات، بصراحة لم نكن نستحق مثله، خاصة أن أيًّا منا لم يحقق إنجازا يُذكر في اللغة الفرنسية، الأغرب أنني كنت حريصًا علي متابعة أخبار الأستاذ عادل لعدة سنوات، وحتي التحاقي بالجامعة، وكانت الأخبار تؤكد أن الرجل يسير علي نفس النهج، كما أن الأجيال التي جاءت بعدنا من التلاميذ، كانت أيضًا تستغل كرم أخلاقه أسوأ استغلال!

علي النقيض تمامًا كان الأستاذ أحمد، مدرس اللغة العربية، أنيق الملبس، قوي الشخصية، حاد النظرات، متجهم الوجه..

كان يتعمد قتل أي بذرة اعتزاز بالنفس داخل تلاميذه، هم دائمًا ـ من وجهة نظره ـ فاشلون ،جهلاء، أغبياء!

العصا الطويلة لم تكن تفارق يده، لم يفلت من عنفه وقسوته أحد، ومع ذلك لم يصل عدد المنضمين إلي الدرس الخصوصي إلي العدد المطلوب، فوقف الأستاذ في مواجهتنا جميعًا وقال بالعربية الفصحي:

ـ أبشركم بأنكم جميعًا راسبون، إلا من انضم للدرس حتي يحسن مستواه..

تمنيت ساعتها لو وجدت الجرأة لأقذف حقيبة كتبي في وجهه العابس، أو أخطف العصا الطويلة من يده وأنهال بها علي ظهره، ليذوق بعضًا مما فعله بنا، لكنني كنت أجبن من ذلك بالطبع، واكتفيت بالنظر إلي كتاب النحو المفتوح أمامي، لأتحاشي نظراته..

ذهبت إلي أبي أشكو له، حكيت ما حدث، ووضعت من خيالي بعض الرتوش، لكي أشعل غضبه، قلت إن الأستاذ ضربني، ومزق كشكول واجباتي، وعندما اعترضت سبني قائلًا:

ـ اسكت يا كلب يا ابن الكلب.

كنت أعرف وقع العبارة علي أبي، وصدق حدسي، فقد وجدته يسألني ليستوثق:

ـ قالك يا كلب يا ابن الكلب.

رددت بكل ثقة:

ـ أيوه.

***

في اليوم التالي، فوجئت بناظر المدرسة يستدعيني إلي مكتبه، توجهت إلي هناك، وبمجرد دخولي وجدت أبي في مواجهتي، حاملًا بندقيته، ومن نافذة المكتب، لمحت اثنين ممن يعملون مع أبي يقفان أمام المدرسة، وهما يحملان السلاح أيضًا !

ارتعشت أوصالي خوفًا، عندما أدركت أن الغضب الذي أشعلته في صدر أبي قد يؤدي إلي كارثه، جلست مرتبكًا، راح ناظر المدرسة يتودد إليّ، ويعاتبني بحنان بالغ، لأنني أزعجت أبي وأدخلته طرفًا في مشكلة بسيطة كان يمكن حلها بسهولة، لو توجهت إلي حضرة الناظر لأعرض عليه الأمر، ومن ثم يتدخل هو للتحقيق في شكواي، وكيف لا يفعل وهو يعتبر نفسه أبًا لكل تلاميذ المدرسة ـ هكذا أكد ـ ولا يمكن أبدًا أن يرضي بأي ظلم، أو إهانة تلحق بواحد من أبنائه..

كان أبي يشرب الشاي الذي قدمه إليه حضرة الناظر، ولا يكف عن تكرار طلب واحد، يلح علي الناظر لكي يستجيب له، أن يأمر باستدعاء الأستاذ الذي أهانني لكي يتفاهم معه، وكان حضرة الناظر مرتبكًا، يقسم له أن الأستاذ غادر المدرسة بعد انتهاء حصصه، مع وعد بأنه سيحقق معه..

كنت رغم الشعور بالخوف من نتائج ما فعلت، فرحًا، منتصرًا،

منتشيًا، تخلصت في لحظة من إحساس القهر الذي زرعه الأستاذ بداخلي، وشعرت لأول مرة أنني أقوي منه، صحيح أن تصرف أبي كان غريبًا، لا يليق بالتعامل مع مدرس، وداخل مدرسة، مهما كانت المبررات، لكني ذقت ساعتها ـ بعد طول قهر وخوف ـ الإحساس بالأمان، بأن لي ظهرًا يمكن أن أستند عليه، خاصة بعد أن لاحظت الأثر الكبير والواضح لما حدث علي تصرفات الأستاذ أحمد وسلوكه معي، فقد توقف تمامًا عن إهانتي، أو اتهامي بالجهل والغباء، أصبح يطالع كشكول واجباتي سريعًا، ويضع عليه الدرجة وهو صامت تمامًا، لكنه ذات مرة، من باب المكايدة، قال بالعربية الفصحي، في معرض حديثه إلي الفصل كله، أنه عندما يتوقف عن الحديث مع تلميذ، أو متابعته بدقة، فهذا لا يعني أنه راضٍ عنه، بل العكس، هو يتجاهله تمامًا، لأنه يعتبره غير موجود، يعتبره «لا شيء»، والحقيقة كنت أنا مستمتعا بأن يتوقف هذا الأستاذ عن مضايقتي واضطهادي، حتي لو كنت من وجهة نظره «لا شيء» !

19

خلال شهور الدراسة توطدت علاقتي بشقيقها، وأبيها، بل وأمها التي كنت أخاف من نظراتها الحادة صارت تعاملني بلطف، شعرت ببعض الأمان، ولم تعد هي تجد حرجًا في الحديث معي، كنت أسبقها بعام دراسي واحد، فكانت تدخل أحيانًا إلي غرفة الدرس لتسألني عن معلومة، أو كتاب دراسي، أحضرت لها كشاكيل مجموعات التقوية التي كنت أحتفظ بها من العام الماضي، كانت كلماتها قليلة، وصوتها لا يعلو أبدًا، كأنها كانت تهمس دائمًا، وتتكلم أحيانًا..

لم يلفت نظري قوامها الرشيق، أو شعرها الأسود كليل الشتاء، ولا ملامحها البريئة وبشرتها الخمرية، فقط عيناها الدافئتان، كنت أنظر إليهما فأري براح قريتي الذي أحن إليه منذ أن قدمت إلي المدينة، أري فيهما حقولًا خضراء علي مد البصر، في عينيها الأهل والعزوة، الماء المنساب في الجداول، قمر ليلنا الذي لم نكن نتأخر عن نجدته لو حاصرته السحب، فنغني له، ونقرع الطبول، حتي يخرج كاملًا من أسره، يوزع نوره علينا وعلي الكون كله، وجدت في عينيها عالمًا رحبًا، حنونًا، مسالمًا، فسكنت فيه!

هل هذا هو الحب؟

كانت حنان تسكن في مواجهة منزل بسيط استأجرت إحدي غرفه عندما هاجرت من قريتي، لألتحق بمدرسة المدينة، تابعتها فعرفت أنها تصعد إلي سطوح بيتهم عصر كل يوم، يبدو أن ذلك كان وقت الترفيه بالنسبة لها، وفي الموعد المحدد كل يوم، كنت أفتح نافذتي، أتظاهر بقراءة كتاب، وأنتظر ظهورها، حتي تطل، فأرتبك، وأحاول ألا أضايقها بنظراتي، لكن بين لحظة وأخري، أقتنص نظرة إلي عينيها، وعندما أطيل النظر، تلتفت بعيدًا، فأفيق من شرودي، وأعود إلي

قراءة كتابي..

أيام ونحن نلتقي في موعد محدد، دون ترتيب، فقط نتبادل النظرات، حتي جاء يوم انتظرت فيه طويلًا دون أن تظهر، شعرت بالقلق عليها، ويبدو أن نظراتي إلي سطح بيتها قد فضحتني، لأن أمها ظهرت فجأة، وصوبت نحوي نظرة نارية جعلتني أرتعش خوفًا، نظرات الأم تقول أنها تعرف السر، تعرف ما أفكر فيه، وما أحلم به، عالجت ارتباكي بطريقة زادت الموقف سوءًا، أغلقت النافذة بسرعة وهربت!

قضيت ليلتي خائفًا، شأن أي غريب يعتدي علي حرمة أهل المدينة التي جاء إليها ضيفًا، ربما قالت لأبيها أنني أنتظرها في نافذتي كل يوم، ومن الجائز أنها حكت لأمها عن نظراتي، وقلبي الذي يخفق كلما رأيتها، ربما يدق بابي الآن دقات عنيفة، ويقتحم أهلها غرفتي لينتقموا مني، هل هنت عليها إلي حد أن تشي بي عندهم، وتستعديهم عليّ، لمجرد أنني عشقت عينيها.. عينيها فقط؟!

مرت الليلة بسلام، خرجت في الصباح متوجهًا إلي المدرسة، وأنا أسترق النظر إلي بيتها لعلي أراها، أو أري من أهلها نظرة أو إشاره تحسم مخاوفي، فوجئت بأبيها يخرج من المنزل متوجهًا إلي عمله، وقبل أن أرتبك، نظر إليَّ وعلي وجهه ابتسامة صافية وهو يقول:

ـ إزيك.

لا أعرف بماذا أجبته، ويبدو أن تلعثمي كان سببًا لابتسامة أخري

ودعني بها، وانصرف، شعرت ببعض الطمأنينة، وألقيت نظرة أخري علي المنزل، لعلي أري حبيبتي، لكنني لم أرها، واصلت طريقي إلي المدرسة وأنا أفكر في تفسير لهذا التناقض، بين نظرات الأم النارية، وابتسامة الأب الرقيقة، لا أظن أن تكون قد وشت بي عند أمها، بينما لا يعلم الأب شيئًا، وربما تكون مخاوفي كلها مجرد هواجس، وفي كل الأحوال لابد أن أراها، وإن لم تظهر علي سطوح بيتهم، سوف أذهب إلي مدرسة البنات وأنتظرها..

مرت أيام ثقيلة ظلت خلالها مختفية، وأنا أفتح النافذة في موعد ظهورها، لكنها لا تأتي، حتي استبدَّ بي القلق، فصحوت مبكرًا، ورابطت في النافذة حتي أراها وهي تخرج إلي مدرستها، وقد كان، رأيتها تخرج بصحبة شقيقها الأكبر، كان وجهها شاحبًا، وخيل إليَّ أنها فقدت جزءًا من وزنها، ففهمت أنها كانت مريضة، قررت أن أغيب من مدرستي لأذهب إلي مدرسة البنات قبل موعد الانصراف، وفعلت..

أمام مدرستها، راودني شعور أن كل المارة يعرفون هدفي، خاصة في ظل تجمعات الشباب التي تقف في انتظار خروج البنات من مدرستهم، أشعر بالخجل الشديد أمام أي نظرة عابرة من شخص لا أعرفه، جهزت نفسي للتحرك نحوها فور ظهورها، يمكن أن أبدأ أولًا بالاطمئنان عليها، ثم أؤكد أنني لا أقف في نافذتي لأضايقها

أو أعاكسها فهذه ليست أخلاقي، وبعد هذه المقدمات الضرورية، أصارحها بأنني أحبها، وبينما أنا هائم في خيالاتي، خرجتْ من باب المدرسة، لتجدني في مواجهتها، كانت نظراتها إليَّ خليط من الدهشة والفرحة والارتباك، ثم ما لبثت أن مضت في طريقها، ووقفت أنا صامتًا أنظر إليها وكأن قدميَّ قد تسمرتا في الأرض، وقفت حتي ذابت وسط طوفان البنات الذي خرج من المدرسة، ثم انصرفت عائدًا إلي البيت!

***

ابتسمت لي ..

نعم، كان ذلك في أول مرة تلتقي نظراتنا بعد أن رأتني أمام مدرستها، ابتسامة عذبة ورقيقة مثل عيونها، سريعة وخاطفة مثل لقاءاتنا الصامتة، ابتسمت وانصرفت، وتركت قلبي يرقص فرحًا منتشيًا، بعدها قررت أن أتخلص من خوفي وجبني، وأن أبحث عن طريقة تقربني منها ومن أسرتها، وهداني تفكيري إلي أن أتعرف بشقيقها الأكبر، كنت أراه يعطي دروسًا خصوصية لبعض الأطفال من جيراننا، وكان ذلك هو المدخل..

بعد أسبوع تقريبًا كنت قد انتظمت في درس اللغة العربية لدي شقيقها الذي اكتشفت أنه ليس مدرسًا، بل مازال طالبًا في الجامعة، وخلال الدرس كنت أسترق النظر إلي خارج الغرفة، فأري حنان

وهي تساعد أمها في أعمال المنزل، كانت تتجاهل وجودي تمامًا، لم أضبطها ولو لمرة واحدة تحاول اختلاس نظرة إليّ مثلما أفعل، إضافة إلي خوفي الشديد من أمها تأثرًا بنظرتها النارية إليّ عندما رأتني واقفًا في نافذتي أحملق في سطح بيتهم، ولم يكن ثمة حل أمامي سوي أن أكتب لها رسالة!

اشتريت من بائع الصحف، كتاب رسائل الحب والغرام، كان كتابًا شهيرًا وقتها يوزع آلاف النسخ، وبه عشرات النماذج من خطابات الحب، قرأته لكنني لم أجد فيه ما أريد أن أقوله لها، شعرت في عباراته وجمله مبالغة وزيفًا، فأمسكت بورقة وقلم وكتبت لها كلمات بسيطة، شعرت أنها تعبر عما بداخلي، رسمت علي جوانب الورقة، قلبًا، ووردة، ووضعت الخطاب في مظروف وأغلقته، دخلت إلي بيتهم وأنا أرتعش خوفًا، تقريبًا نفس إحساس من يرتدي حزامًا ناسفًا، في المرة الأولي فشلت في أن أسلمها الرسالة، وفي الثانية انتهزت فرصة وجودها في طريقي وحيدة، أخرجت الرسالة بيد مرتعشة، تلفتُّ حولي وقدمتها إليها، أخذت الرسالة مني وهي في قمة الارتباك، ودخلت أنا إلي غرفة الدرس وأنا أتصبب عرقًا..

هل يمكن أن تغضبها جرأتي؟ هل تحكي ما جري لأمها ذات النظرات النارية وتفضحني، هل تقدم الرسالة إلي أبيها أو شقيقها؟ كادت تلك الأسئلة تفتك بعقلي، وأنا أتعجل انتهاء الحصة لأهرب من

مصير أسود محتمل، عدت إلي غرفتي نادمًا، وحزينًا، وخائفًا، فتحت النافذة فوجدتها في مواجهتي، وقفت منتظرًا رد فعلها، ابتسمت، تلفتت حولها، ثم ألقت شيئًا اخترق نافذتي وسقط علي الأرض، لابد أنها الرسالة، يا ويلي، وويل قلبي الصغير، هنت وهانت مشاعري إلي حد أن تقذف رسالتي في وجهي؟ بحثت عن هذا الشيء في أرض الغرفة حتي وجدته، ورقة ملفوفة بعناية، فتحتها بلهفة..

ـ قطعة شيكولاتة.

كل أغنيات أم كلثوم وحليم لم تكن لتطربني مثلما أنا الآن، ترد علي رسالتي بالشيكولاتة، إذن تحبني، هي تحبني، نعم تحبني، أكيد تحبني، هل يكفي أن أرقص؟ أغني؟ أقفز من النافذة؟ أطير إلي سطح بيتهم وأحتضنها؟

عدت إلي النافذة ملهوفًا فلم أجدها، تبخرت بعد أن أهدتني أعظم قطعة شيكولاتة في حياتي!

خلال شهور الدراسة توطدت علاقتي بشقيقها، وأبيها، بل وأمها التي كنت أخاف من نظراتها الحادة صارت تعاملني بلطف، اكتشفت أن والدها يعرف بعض أقاربي لأنه عمل لفترة موظفًا في الجمعية الزراعية بقريتنا، شعرت ببعض الأمان، ولم تعد هي تخاف من الحديث معي، كنت أسبقها بعام دراسي واحد، فكانت تدخل أحيانًا إلي غرفة الدرس لتسألني عن معلومة، أو كتاب دراسي، أحضرت لها

كشاكيل مجموعات التقوية التي كنت أحتفظ بها من العام الماضي، كانت كلماتها قليلة، وصوتها لا يعلو أبدًا، كأنها تهمس دائمًا، وتتكلم أحيانًا..

وقفت في نافذتي يومًا حتي حضرت، قلت لها دون مقدمات:

ـ بحبك.

اجتهدت ليصل صوتي إليها هي فقط ولا يسمعه الجيران، واستعنت بيدي أشير بها نحو قلبي لأؤكد المعني، فردت كعادتها بابتسامة صافية ثم نظرت في الأرض خجلًا..

اقتربت نهاية العام الدراسي، وكان عليّ أن أعود إلي قريتي في الإجازة الصيفية، وعلمت من شقيقها أنهم يسافرون إلي قريتهم أيضًا، حطَّ علي قلبي حزن عميق لم تخف وطأته إلا عندما طلب مني والدها إذا حضرت للمدينة لمعرفة النتيجة، أن أسأل عن نتيجة ابنته وأبلغهم تليفونيًا، ومنحني رقم تليفون أرضي لدي جيرانهم في القرية، كانت فرحتي لا توصف، وطمأنته إلي أنني سأنفذ تكليفه لي حتي لو اضطررت إلي الذهاب إلي قريتهم إذا تعذر عليّ الاتصال التليفوني، «كان إتمام اتصال تليفوني وقتها من المعجزات»، شكرني وقال إنه يحبني مثل أولاده تمامًا، ففرحت لمشاعره الجميلة نحوي، باعتبار أن ذلك يسهل مهمتي في المستقبل لو تقدمت طالبًا الزواج من ابنته..

تابعت أخبار النتيجة باليوم والساعة، وقتها كان عمال المدارس

يطوفون القري ومعهم كشوف الناجحين، يذهبون إلي الطلاب في بيوتهم، يبشرونهم بالنجاح ويحصلون علي «الحلاوة»، لذلك فقد ذهبت في أول يوم لظهور النتيجة، وكنا أنا وهي من الناجحين، وذهبت إلي السنترال، وبصعوبة تمكنت من الاتصال بجيرانهم، وبعد دقائق من الانتظار، جاءني صوتها هامسًا كعادتها، باركت لها علي النجاح، شكرتني وسألتني عن نتيجتي فطمأنتها، كنت أريد أن أقول لها إنني أحبها، وأن الشوق إليها يعذبني، لكن كل من في السنترال كانوا سيسمعون كلماتي، فآثرت الصمت!

حزمت حقائبي، في بداية العام الدراسي الجديد، وقلبي يرقص فرحًا، سأعود إلي نفس الغرفة التي أوصيت صاحب البيت ألا يؤجرها لغيري، سأقف في نفس النافذة لأنتظرها، لابد أن شهور الفراق قد آلمتها مثلي، ربما تجعلها شهور البعد أكثر جرأة، فتقول لي ولو لمرة واحدة إنها تحبني، وصلت إلي غرفتي، وضعت حقائبي، وانطلقت إلي بيتهم، استقبلني أبوها بحفاوة شديدة، وكذا شقيقها وأمها، وجدت حرجًا في أن أسأل عنها، ويبدو أن الأم قد لاحظت ترددي فقالت وهي تدعو لي:

ـ حنان اتجوزت .. عقبالك.

لابد أنهم لاحظوا ارتباكي، وتوتري، واحمرار وجهي، رغم المجهود الضخم الذي بذلته لكي أخفي أثر هذه الصدمة، نعم تزوجت، كان

عمرها لا يزيد على 16 عامًا، تزوجت محاميًا ثريًا يكبرها بعشرين عامًا، وشاء القدر أن أعيش نفس نهايات أفلام الأبيض والأسود التي كنا نسخر منها!

***

سنوات طويلة مرت، كنت في زياراتي للمدينة ألتقي أبوها أو شقيقها مصادفة فأسلم عليهما، ويدعواني لزيارتهم فأعتذر، كنت أمر من الشارع في وقت متأخر، أنظر إلي نافذتي، وإلي سطح بيتهم، وغبت فترة طويلة، عدت بعدها لأجد البيت الذي كنت أسكن إحدي غرفه قد تم هدمه، والعمل يجري لإقامة برج سكني في مكانه، لا أعرف لماذا توجهت إلي بيتهم، ربما خفت أن أعود في الزيارة التالية فلا أجده..

طرقت الباب، فتح لي شقيقها واستقبلني بترحاب، كان البيت مليئًا بالأطفال، عرفت منه أن الأب قد توفي، وقبل أن أقدم إليه العزاء، كانت هي تخرج من إحدي غرف المنزل، صافحتني بحميمية، وأنا أتأملها، اختفي القوام الممشوق تحت أرتال الدهون والشحوم، كان صوتها مرتفعًا وهي تدعوني إلي الجلوس لتقديم واجب الضيافة، لم تعد تهمس كما كانت، كل ما فيها تغير، إلا عينيها، كانتا مثلما رأيتهما أول مرة!

20

لم يكن «الفشار»، قد تم اختراعه بعد، لكن كان هناك بديل للفشار في سينما ملوي بالاس، أغرب سندوتش يمكن أن تأكله في حياتك، سندوتش محشي كرنب، كانت تبيعه سيدة بدينة جدًا، تجلس أمام السينما وأمامها «حلة» مليئة بأصابع المحشي، أما الشاي داخل السينما، فكان مسئولية عم «أبوستة» الذي يطوف حاملًا صينية عليها أكواب الشاي الساخنة، لم نعرف اسمه الحقيقي أبدًا، لأن «أبوستة» كان لقبًا أطلقه عليه الناس لأن يده اليمني كانت بها ستة أصابع..

السينما، شاشة السحر والإبداع، عرفتها مبكرًا، باعتبارها وسيلة ترفيه، في زمن لم نكن نملك فيه سوي الراديو، بدأت علاقتي معها كزواج المتعة، وتطورت العلاقة إلي حب وعشق، جعلني أقرر ـ في عمر متأخر إلي حد ما ـ أن أدرس صناعتها، وأحلم بأن أصبح واحدًا من كتابها ..

أول مرة أدخل السينما كنت بصحبة أبي وكان عمري فيما أذكر لا يزيد على السنوات السبع، شاهدنا فيلمًا كوميديًا لفريد الأطرش وإسماعيل ياسين، «ربما يكون عفريتة هانم»، وبعدها بسنوات صرت زبونًا دائمًا علي سينما ملوي بالاس، كانت سينما فقيرة يملكها طبيب مسيحي، مقاعدها متهالكة، وأجهزة الصوت في غاية الرداءة، لكننا كنا نحبها، ولم يكن يمر أسبوع دون أن ندخر من مصروفنا قروشًا لدفع ثمن التذكرة، يتكون البروجرام من فيلمين، أجنبي، يكون في الغالب من أفلام الأكشن التجارية، وفيلم عربي، لنجمات هذه الفترة، نادية الجندي، ونبيلة عبيد، الأولي أطلقت علي نفسها لقب «نجمة الجماهير»، فردت الثانية ـ من باب المكايدة ـ بأن اختارت لنفسها لقب «نجمة مصر»..

قاعة السينما مقسمة إلي ثلاثة أقسام؛ الأول هو البلكون، وهو الأعلي سعرًا، والثاني هو الصالة، للطبقة المتوسطة، أما الثالث فهو الترسو، الذي كنا نضطر أحيانًا إلي أن نكون من زبائنه لضيق ذات اليد، لم يكن يزعجنا كثيرًا أن تكون مقاعدنا ملاصقة لشاشة العرض، لكن المزعج في الأمر، هو عنصرية وتسلط زبائن البلكون، الذين كانوا يدخنون السجائر، ثم يقذفونها مشتعلة علي زبائن الترسو، وهو ما يجعل الواحد منا في حالة ترقب دائم، انتظارًا لعقب السيجارة الذي سوف يستقر في قفاه!

لم يكن «الفشار»، قد تم اختراعه بعد، لكن كان هناك بديل للفشار في سينما ملوي بالاس، أغرب سندوتش يمكن أن تأكله في حياتك، سندوتش محشي كرنب، كانت تبيعه سيدة بدينة جدًا، تجلس أمام السينما وأمامها «حلة» مليئة بأصابع المحشي، أما الشاي داخل السينما فكان مسئولية عم «أبوستة» الذي يطوف حاملًا صينية عليها أكواب الشاي الساخنة، لم نعرف اسمه الحقيقي أبدًا، لأن «أبوستة» كان لقبًا أطلقه عليه الناس لأن يده اليمني كانت بها ستة أصابع..

شاهدت في سينما ملوي بالاس الأفلام التجارية التي أنتجت في بداية الثمانينيات، وشاهدت فيها أيضًا بدايات تيار الواقعية الجديدة مع أفلام عاطف الطيب، ومحمد خان، وخيري بشارة،

وداود عبدالسيد، ورأفت الميهي، الذي كنت متيمًا بأفلامه ثم أسعدني الحظ بعد ذلك بسنوات وأصبحت واحدًا من تلاميذه..

ظلت سينما ملوي ملجأ للمتيمين بالفن، والباحثين عن متعة تناسب قروشهم القليلة، حتي بدايات التسعينيات، عندما ضربت المدينة موجة الإرهاب والعنف، وفرضت أجهزة الأمن حظر التجوال فيها لمدة عام كامل، من السادسة مساء، وحتي السادسة صباحًا، وبالطبع أغلقت السينما، وكلما زرت المدينة، أتطلع إلي أبوابها الموصدة، وأعالج حنيني بالنظر إلي بقايا أفيش فيلم قديم، مازال موجودًا في مكانه، رغم عشرات السنين التي مرت علي عرضه!

في نفس الفترة شهدت مصر انتشارًا واسعًا لنوادي الفيديو، التي أحرقها الإرهابيون فيما بعد أيضًا، واستغلت بعض المقاهي الفرصة، فأصبحت تعرض أفلام فيديو حديثة لروادها، وعندما سمعت أنا وأصدقائي عن هذا الحدث المهم، قررنا أن نخوض التجربة، ونشاهد فيلمًا جديدًا في أحد المقاهي..

كان موعد العرض في منتصف الليل، ذهبنا لنجد الزبائن التقليديين للمقهي قد انصرفوا، وبقي فقط من جاءوا لمشاهدة الفيلم مثلنا، دفعنا ثمن المشاهدة، عشرة قروش، وكان صاحب المقهي يشرف بنفسه علي تجهيز الفيلم وإعداده للعرض، لاحظنا

أنه واثنين من مساعديه ينظرون إلي الخارج بتوجس وقلق، فتبادلنا الأسئلة همسًا، وكانت الإجابة أن المقاهي لابد أن تحصل علي تصريح بعرض أفلام الفيديو، لأنها غير مرخص لها بذلك، أشار صاحب المقهي لأحد مساعديه ففهم إشارته، خرج ليقف أمام باب المقهي وهو يتلفت يمينًا ويسارًا، ففهمنا أنه يقوم بدور «النضورجي»، تحسبًا لأي هجوم من رجال الأمن، تسرب إلينا قلق حاولنا أن نسيطر عليه حتي لا يفسد علينا متعة المشاهدة، بعدها أغلق صاحب المقهي الباب، وطلب من مساعده بدء العرض، ثم نظر إلينا وعلي وجهه ابتسامة ساخرة وهو يقول:

ـ شغِّل يا بني خلِّي الشباب دي تتبسط...

وبدأ العرض، وكانت هذه هي المرة الأولي التي أشاهد فيها فيلم «حمام الملاطيلي»، للفنانة شمس البارودي، والفنان محمد العربي!

21

جهزنا زجاجة البنزين، تحركنا في ساعة الصفر، الثالثة فجرًا، اتخذ كل منا مكانه المتفق عليه، راقبنا المنطقة بعض الوقت لنطمئن، وعندما حانت لحظة تحركنا نحو الكشك، شعرت ببعض الخوف، هل أنا هذا الشخص الذي يحمل في يده زجاجة بنزين، ليرتكب جريمة قد تودي بمستقبله كله؟ ماذا جري لي؟ أين عشقي للقراءة والسينما والمسرح؟ هل تطور ولعي بالمغامرات، وعشقي لفن التنكر، إلي حد أنني تحولت إلي مجرم أو بلطجي؟

لماذا كرهت مدرستي بهذا الشكل؟!

غياب متكرر، مصادمات مع المدرسين، فشل تام في استيعاب الدروس، إهمال للكتب، بدايات إدمان التدخين، انصراف غريب عن هواياتي المحببة كالقراءة والمسرح، ملل واضح من صحبة المتفوقين والمحترمين من زملائي، وارتباط نفسي عجيب بالفاشلين، المتمردين، الرافضين لأي التزام، باختصار، كان عامًا كئيبًا وبائسًا من حياتي سمَّيته «عام الحزن»، ولو استمرت حياتي بعده علي نفس المنوال، لكان مستقبلي قد اختلف تمامًا، وربما انتهيت عاملًا بسيطًا في الزراعة، أو ميكانيكي سيارات!

ربما يعود ذلك إلي ارتباكات مرحلة المراهقة، ومن الجائز أنني كنت قد مللت حياتي السابقة، وأرغب في نموذج آخر للحياة، مليء بالمغامرات، التمرد، الفشل، العنف!

تشاجرت أنا واثنان من زملائي مع عامل في مخبز، كانت الساعة الثالثة فجرًا، اشتبكنا مع العامل، وبعد وصلات الشتائم المتبادلة، رحنا نقذف المخبز بالطوب، وفجأة وجدنا من يمسك بنا، جندي الدرك المكلف بالتأمين، اقتادنا إلي قسم الشرطة، سلمنا

إلي حضرة الصول المشرف علي النوبتجية، وروي له ما بدر منا، أدخلنا الصول إلي الحجز، لحظتها فقط أدركنا أننا في أزمة كبيرة، مرت ساعات ثقيلة، ونحن نتبادل نظرات خائفة وحائرة، حتي خطرت لي فكرة، تذكرت أن ضابط شرطة من أبناء قريتي يعمل في القسم، ولم أتردد، سألت عنه حضرة الصول، فسألني وعلي وجهه ابتسامة ساخرة:

ـ وأنت تعرفه منين؟

أكدت له بثقة أنه يعرفني جيدًا، وطلبت منه أن يبلغه فور وصوله، بأنني موجود، فابتسم باستخفاف والتزم الصمت..

كان الصبح قد أوشك، عندما دخل الضابط بلدياتي، وفوجئ بوجودي، سألني دون مقدمات ـ وهو في غاية الدهشة ـ عن سبب وجودي، ألَّفت له ـ بمساعدة أصدقائي ـ قصة ملفقة عن اعتداء عامل المخبز علينا، وقلنا إن الجندي استمع له، ولم يكلف خاطره بسؤالنا ليعرف وجهة نظرنا، أشار الضابط إلينا لنخرج، مؤكدًا أن الأمر لو تكرر مرة أخري فسوف يبلغ أسرتي التي يعرفها جيدًا، شكرته ووعدته خيرًا، ولم أنسَ أن أرد لحضرة الصول نظرته الساخرة إليّ..

كانت سعادة أصدقائي المتشردين لا توصف، فقد اكتشفوا أنني «مسنود»، وفي اليوم التالي كانت القصة بكل تفاصيلها

محورًا لأحاديث تلاميذ المدرسة، خاصة بعد أن أضفنا إليها بعض الرتوش، التي من أهمها أن الضابط قد حذر حضرة الصول من أن يتم القبض علينا مرة أخري، مؤكدًا أن سوف يسجن أي عسكري يتجرأ ويقتادنا للقسم، مهما فعلنا، والغريب أن كثيرًا من زملائنا قد صدقوا هذه الرواية، وأصبحوا يعاملوننا بحذر!

أعطتني التجربة أملًا في مزيد من الفشل، دون انتظار للعقاب، فانطلقت في عالم الفشل بلا رادع، لم يمر وقت طويل حتي تشاجرنا مع صاحب كشك سجائر، عاملنا بشكل غير لائق، ولأنه ضخم البنية، لم نتمكن من مواجهته، وعدنا مهزومين، لا نفكر في شيء سوي الثأر منه..

كانت المواجهة معه سوف تنتهي حتمًا إلي خسارتنا، لذلك لم يكن بد من وضع خطة للانتقام لا نواجهه خلالها وجهًا لوجه، ماذا نفعل لنثأر لكرامتنا، ونضمن في نفس الوقت ألا يتمكن منا، فتصبح الهزيمة هزيمتين..

واهتدينا إلي الفكرة، نحرق كشك السجائر الذي يملكه، نعم، نحطم مصدر الرزق الذي يعيش عليه، ولا عيب في ذلك، فقد رزقه الله بهذا الكشك، لكنه لم يرعَ ضميره، وتعامل بفظاظة وغطرسة معنا، ونحن زبائن، أرسلنا الله إليه ليرزقه من خلالنا!

سهرنا لوضع الخطة، فردنا أمامه ورقًا، ورسمنا كروكي

للمكان، مثلما يفعل أبطال أفلام الأكشن، حددنا أماكن تواجد كل منا ومهمته، واحد في أول الشارع يراقب ويصدر صفيرًا عاليًا للتحذير في حالة ظهور أي شخص، والثاني في آخر الشارع يؤدي نفس المهمة، أما أنا وصديقنا الرابع فعلينا الاقتحام، وإشعال النار في الكشك، ثم الفرار قبل أن ينتبه الناس إلي الحريق!

جهزنا زجاجة البنزين، تحركنا في ساعة الصفر، الثالثة فجرًا، اتخذ كل منا مكانه المتفق عليه، راقبنا المنطقة بعض الوقت لنطمئن..

عندما حانت لحظة تحركنا نحو الكشك، شعرت ببعض الخوف، هل أنا هذا الشخص الذي يحمل في يده زجاجة بنزين، ليرتكب جريمة قد تودي بمستقبله كله؟ ماذا جري لي؟ أين عشقي للقراءة والسينما والمسرح؟ هل تطور ولعي بالمغامرات، وعشقي لفن التنكر، إلي حد أنني تحولت إلي مجرم أو بلطجي؟

كان وقت مراجعة النفس قد فات، لا يصح بعد أن نفذ أصدقائي التزامهم في الخطة، وكانوا مثالًا للشجاعة والإقدام، أن أتراجع أنا في تلك اللحظة الحاسمة، ماذا سيقولون عني لو فعلت؟ كيف أنظر في وجوههم بعد أن يكتشفوا جبني، والأهم من ذلك، كيف نترك صاحب الكشك الحقير يفلت بفعلته، دون أن يدفع ثمن إهانته لنا؟

تقدمت أنا وصديقي إلي الهدف، وكل حواسنا منتبهة، لرصد

أي حركة غريبة، ولسماع أي تحذير قد يأتينا من صديقينا المسئولين عن مراقبة الشارع، وصلنا إلي الكشك، وقبل أن نشرع في تنفيذ مهمتنا، فوجئنا بكلب ضخم وشرس، يجري نحونا وهو ينبح بشكل متواصل، لا نعرف من أين خرج، ولا لماذا أتي، تمكن منا الفزع، ألقيت زجاجة البنزين فتحطمت، وكان صوتها كفيلًا بإيقاظ سكان البيت الذي يقع الكشك أمامه، بدأنا نجري، والكلب يطاردنا بإصرار، حتي خرجنا من الشارع، ولحق بنا زملاؤنا، لم نتوقف عن الجري إلا بعد أن ابتعدنا عن الكلب، وصرنا في مأمن، توقفنا لحظات لنلتقط أنفاسنا، ثم انفجرنا جميعًا في نوبة من الضحك الهستيري..

ما الذي أتي بهذا الكلب الذي لم نر له أثرًا عندما وصلنا إلي الشارع؟ وكيف اختار اللحظة المناسبة التي يهجم علينا فيها، قبل إتمام جريمتنا بلحظات؟

مازلت مؤمنًا حتي الآن، بأن هذا الكلب هو تجسيد للقدرة الإلهية التي كانت ومازالت تحميني، وتتدخل لإنقاذي، في أكثر لحظات حياتي قسوة وأشدها خطورة!

***

أبلغتني المدرسة بقرار فصلي لتجاوزي نسبة الغياب المقررة، وهي ثلاثون يومًا متفرقة، حدث ذلك بعد أن خدعني موظف في

شئون الطلاب، أوهمني أن غيابي لم يتجاوز 23 يومًا، فانقطعت عن المدرسة اعتمادًا علي الأيام المتبقية لي، وعندما واجهته، برر ذلك بأن رصد أيام الغياب لا يتم يومًا بيوم، وربما كانت هناك أيام غياب لم يتم رصدها عندما سألته، علمت بعد ذلك أن خلافًا حادًا كان قد نشب بين هذا الموظف وواحد من أقاربي، فأراد ـ لعنة الله عليه ـ أن ينتقم مني، وخلاصة الموقف أنني أصبحت مفصولًا، ولابد من حضور ولي أمري، لكي يقوم بنفسه بإجراءات إعادة قيدي..

كان الأمر بمثابة كارثة، كيف أبلغ أبي؟ ماذا سيكون رد فعله؟ هل هناك حل للأزمة أضمن به وجودي في المدرسة وفي نفس الوقت أتجنب حضور أبي؟

شخص واحد كنا نلجأ إليه في مثل هذه الأزمات، الأستاذ نبيل، صديق الطلبة «هذا لقبه»، هو الموظف المسئول عن توزيع وجبة التغذية علي التلاميذ، ومعروف عنه أنه خدوم، وقادر علي حل أي مشكلة قد تواجهنا..

ذهبت إليه وشرحت له قصتي، بدا عليه التأثر الشديد، وقال بلهجة الخبير الحكيم: إننا لابد أولًا أن نمنع وصول خطاب المدرسة بفصلي إلي والدي، ثم نبحث عن حل للمشكلة، ولما سألته عن الطريقة التي نمنع بها الخطاب، أشار بيده نحو عم سمير عامل المدرسة وهو يهمس في أذني:

ـ عمك سمير هو اللي بيوصل الجوابات للبريد.. روح له واتفاهم معاه.

هممت بالتوجه إلي العامل، لكن الأستاذ نبيل أوقفني، ونصحني أن ألتقي بعم سمير خارج المدرسة، في محل المكوجي الذي يملكه، ووصف لي العنوان..

ذهبت إلي المكان، فوجدت عم سمير يكوي ملابس الزبائن، كان يحدثني وهو يعمل، شرحت له المشكلة، وقدمت له مبلغ خمسين قرشًا، كما طلب مني الأستاذ نبيل، أخذها عم سمير، ووضع المكواة جانبًا، ثم فتح حقيبة جلدية صغيرة، محشوة بالخطابات، ظل يفرزها حتي أخرج خطاب المدرسة إلي ولي أمري وقدمه لي، وكانت فرحتي لا توصف بإنجاز المرحلة الأولي من خطة المواجهة..

عدت إلي الأستاذ نبيل، وطمأنته إلي أن الخطاب أصبح بحوزتي، فتوجه معي إلي شئون الطلاب، تحدث معهم، حاول إقناعهم بأن يوافقوا علي إعادة قيدي مقابل دفع الرسوم «عشرة جنيهات»، دون اشتراط حضور ولي الأمر، لكنهم رفضوا تمامًا، وخرجنا نجر أذيال الخيبة..

عرض عليّ الأستاذ نبيل خطته البديلة، قال إنه نفذها مع أكثر من تلميذ وحققت نتائج مبهرة، أن نأتي بـ«كومبارس» يمثل دور

ولي الأمر، يذهب معي إلي شئون الطلاب مقابل أجر قدره جنيه واحد، وهناك أمام الموظفين سيقول إنه أبي، جاء بعد أن وصله خطاب فصلي، ثم يستدير نحوي ـ هكذا تقول الخطة ـ ويصفعني علي وجهي، حتي يقتنع الموظفون بأنه والدي، ويتممون إجراءات قيدي بعد دفع الرسوم ..

كنت قد سمعت من زملائي عن هذه الطريقة بالفعل، وحكي لي أحدهم أنه أتي ببائع بطاطا يعرفه مثّل دور عمه ليتمم إجراءات قيده، لأن والده متوفي، أعجبتني الخطة، لكنني بعد لحظات، تذكرت أن موظف شئون الطلاب الذي خدعني وتسبب في فصلي، يعرف أغلب أفراد عائلتي، وربما يعرف أبي شخصيًا، ولو نفذت خطة الأستاذ نبيل، وتمكن هو من كشفها، فستكون العواقب وخيمة..

بعد أيام طويلة من المحاولات، فشلت تمامًا، ولم أجد مفرًا من إبلاغ أبي، فكتبت إليه خطابًا، قصصت فيه ما حدث، وجاء ـ رحمة الله عليه ـ حزينًا، مصدومًا، كان ينظر إليّ صامتًا، أنهي إجراءات إعادة قيدي بالمدرسة، وبكلمات قليلة وحاسمة حذرني، إن لم أعتدل، فسوف يكون قراره الذي لا رجعة فيه، خروجي نهائيًا من التعليم، والعودة إلي القرية، للعمل معه في زراعة الأرض، ولأني أعرف شخصيته القوية، أيقنت أنه سينفذ تهديده بالفعل، فقررت

أن أراجع نفسي، وبالفعل جاهدت حتي أبتعد عن رفاق السوء، لكن ذلك لم يكن سهلًا، ولم أجد ساعتها مفرًا من ترك المدينة كلها، طلبت من أبي أن يحول أوراقي إلي مدرسة في مدينة أخري، وتفهم هو طلبي، بل شعرت بأنني استعدت ثقته عندما لمس إصراري علي بدء صفحة جديدة من حياتي، وقد كان، انتقلت إلي مدرسة في مدينة ديرمواس، أكملت بها تعليمي حتي التحقت بالجامعة.

22

هذه ليست كل مفاجآت عمارة عم فخري، والمفارقة ليست في صاحب عمارة مسيحي يرتبط بعلاقة أبوية جميلة مع طلاب جميعهم مسلمون، حيث لم يكن من سكان العمارة مسيحي واحد،كما أن الطرافة لا تقتصر علي شقة يسكنها طلاب يساريون نشطون، وفي مواجهتهم مسجد يديره الإخوان المسلمون..

المفاجأة الأكبر أن العمارة المواجهة لنا تمامًا كان يسكن بها مفتش مباحث أمن الدولة بأسيوط في ذلك الوقت!

كنت محظوظًا في فترة دراستي الجامعية، ليس بكلية الحقوق التي التحقت بها، لأنني لم أعمل يومًا بالقانون، وإنما بالعمارة التي سكنت فيها، عمارة عم فخري..

تقع العمارة علي ناصية شارعين بأحد الأحياء الراقية في مدينة أسيوط، شكلها مميز لأنها علي هيئة مثلث، أحرص حتي الآن علي التطلع إليها عبر نافذة القطار كلما زرت أسيوط، أجدها كما هي، وكأن 25 عامًا مضت لم تكن كافية لتغير من ملامحها شيئًا..

هنا ـ في عمارة عم فخري ـ قضيت ثلاث سنوات من أصل أربعة هي فترة دراستي، أربع شقق تحتل الدورين الرابع والخامس كان عم فخري يؤجرها لطلاب الجامعة، وأنا واحد منهم..

مازلت أذكر ملامح الرجل، بشرته السمراء، بدين إلي حد ما، التجاعيد الواضحة توحي بأنه تخطي الستين من عمره، أول كل شهر يتحامل العجوز المسيحي علي نفسه، ويصعد السلالم وبصحبته صبي صغير يحمل كشكولًا يسجل فيه الحسابات، يدخل إلي الشقة الأولي ثم الثانية، يصعد إلي الدور الخامس، تستغرق تلك الرحلة قرابة الساعة، يعود عم فخري بعدها إلي

شقته بالدور الثالث، وتظل صفحات الكشكول بيضاء ناصعة، ويفشل صبيه في تسجيل أي حسابات في صفحة الإيرادات.. بينما تشهد صفحة المصروفات تطورًا ملحوظًا، حيث يقترض كل منا من عم فخري ما يحتاجه، مبالغ تبدأ من خمسة جنيهات وقد تصل إلي عشرين جنيهًا!

عم فخري ـ عليه رحمة الله ـ علي هذه الحال كان بالنسبة لنا «زبون لقطة»، وبعد أن توطدت العلاقة بيننا وتطورت إلي علاقة أبوية، أصبحنا نستخدم تليفون منزله، ونستمتع بالدردشة معه، أحيانًا يدعونا إلي العشاء.. وأحيانًا أخري نتناول الطعام عنده دون دعوة!

هذه ليست كل الحكاية.. ففي الدور الرابع تسكن مجموعة من أصدقائنا يشكلون خلية شيوعية، بعضهم كان ينتمي رسميًا إلي حزب التجمع، والبعض الآخر يمارس نشاطه دون إعلان، كان ذلك في أواخر الثمانينيات، أي في عز سطوة الجماعات الدينية في أسيوط، جامعتها وشوارعها..

أذكر أن زملاءنا الشيوعيين نظموا معرضًا لمجلات الحائط بالجامعة عن القضية الفلسطينية فقام طلاب الجماعة الإسلامية بتحطيم المعرض، ومحور الخلاف بين الجانبين أن اليسار يرفع شعار «فلسطين عربية» أما التيار الديني فيري أن «فلسطين

إسلامية .. لا شرقية ولا غربية»..

وقد شهدت تلك الفترة تراجعًا ملحوظًا لليسار في الجامعات، حتي إن أصدقائي الذين أحدثكم عنهم قرروا ذات يوم تنظيم مظاهرة ضد الاحتلال الإسرائيلي، كان عددهم قليلًا لا يتجاوز عشرة أشخاص، تجمعوا في الموعد المحدد، وبدأوا يرددون الهتافات، ويجوبون طرقات الحرم الجامعي، كان الأمل يحدوهم في أن ينضم إليهم الطلاب، لكن ذلك لم يحدث، وظلوا يهتفون وحدهم حتي أثاروا سخرية الطلاب وضحكاتهم..

سطوة الجماعات الدينية كانت قد وصلت لذروتها، ولم يكن في الجامعات فصيل قادر علي حشد الناس سوي التيار الديني، أما بقية التيارات فكان مصيرها الضحكات الساخرة..

لم يكن ذلك فقط هو سبب حزن وإحباط أصدقائي وجيراني من اليساريين، لأنهم كانوا يعودون من الجامعة، حيث تفرض عليهم الجماعات الدينية حصارًا شديدًا، ليبدأوا فصلًا جديدًا من الإحباط مصدره شرفة الشقة التي يسكنون فيها ..

الشرفة تطل علي مسجد «أبي الجود»، وهو مسجد شهير في أسيوط، كان في تلك الفترة تابعًا لجماعة الإخوان المسلمين، وكنا ـ مثل سكان الحي كله ـ علي موعد كل ثلاثاء مع يوم مفتوح بالمسجد، السجاجيد والحصر تحتل الشارع كله لمسافة تصل

إلي 500 متر، أعضاء الجماعة يستخدمون دراجاتهم كمتاريس، يصنعون منها سياجًا يحيط بالمصلين، ويمنع مرور السيارات أو الأشخاص، سيارات الأمن المركزي تقف علي أطراف الشوارع المؤدية إلي المنطقة علي أهبة الاستعداد، ويتم تحويل مسار السيارات إلي شوارع بديلة.

يبدأ اليوم بعد صلاة المغرب، بخطبة يلقيها أحد قيادات الإخوان، وعلي رأسهم الدكتور محمد السيد حبيب رئيس نادي هيئة التدريس بأسيوط في ذلك الوقت، وكذلك وجدي غنيم وغيرهما، وبعد الخطبة يلقي أحد أعضاء الجماعة نشرة أخبار العالم الإسلامي، ويركز علي أخبار المذابح التي يتعرض لها المسلمون في أنحاء العالم..

أذكر أنني استمعت إلي إحدي الخطب من شرفة شقتي بالدور الخامس، واستعرض الخطيب فضائل الإخوان المسلمين ومعجزاتهم في حرب فلسطين عام 1948، وقال ضمن ما قال:

بمجرد هجوم الإخوان علي أي موقع لليهود كانوا يفرون ـ أي اليهود ـ وهم في حالة من الرعب الشديد، يصرخون «الإخوان .... الإخوان ..... الإخوان»!

وبعدها بأيام جمعني لقاء مع أحد الطلاب المنتمين للجماعة، قلت له إن هذا الكلام غير صحيح، فأمَّن علي كلامي، لكنه قال

باقتناع كامل «يا أخي.. هذا نوع من التربية الفكرية»، سألته مندهشًا: لكن خطيبكم يكذب؟

فقال الطالب الإخواني: هو يستهدف بث روح الشجاعة والإقدام في الناس، ويشعرهم بقوة المؤمنين، ويظهر ضعف الكافر الذي يهرب مثل فأر مذعور، أمام قوة المؤمن وصلابة عقيدته..

لم أقتنع بالطبع بأن الكذب يمكن أن يكون وسيلة مشروعة، حتي لو كانت الغاية سامية، وإلا فلماذا يسخر الإخوان من بيانات تحطيم سلاح الجو الإسرائيلي في حرب1967، والتي كانت الإذاعة المصرية تبثها يوم 5 يونيو، في الوقت الذي كانت فيه مطاراتنا قد تحولت إلي عجينة طرية بفعل الضربات الإسرائيلية المركزة..

أليس الكذب هنا، هو ذاته الكذب هناك؟ أم أن أكاذيب الإخوان حلال، وبيانات عبد الناصر حرام؟

هذه ليست كل مفاجآت عمارة عم فخري، والمفارقة ليست في صاحب عمارة مسيحي يرتبط بعلاقة أبوية جميلة مع طلاب جميعهم مسلمون، حيث لم يكن من سكان العمارة مسيحي واحد،كما أن الطرافة لا تقتصر علي شقة يسكنها طلاب يساريون نشطون، وفي مواجهتهم مسجد يديره الإخوان المسلمون..

المفاجأة الأكبر أن العمارة المواجهة لنا تمامًا كان يسكن بها مفتش مباحث أمن الدولة بأسيوط في ذلك الوقت!

وأشهد أنه كان رجلًا دمث الخلق، طبيعة عمله كانت تقتضي غيابه عن المنزل أغلب الوقت، وفي فترات الراحة كان يجلس علي مقعده في الشرفة، دون أن يتعمد مضايقتنا، أو استغلال سلطته في مواجهتنا، خاصة أن بعض زملائنا كان متخصصًا في معاكسة الفتيات، أثناء مرورهن أمام العمارة...

هذا لا يمنع طبعًا من أننا كنا نري جنود «المراسلة» وهم ينظفون شقة الباشا، ويقومون بكل الأعمال المنزلية، ويتحملون ضربات موجعة علي ظهورهم من أبناء سيادته، ربما علي سبيل الدعابة!

ومع مرور الوقت نشأت علاقة صداقة ـ عبر النوافذ فقط ـ بيننا وبين أولاد الباشا، الذين كانوا وقتها أطفالًا أكبرهم لا يتجاوز عمره 15 عامًا..

ثلاث سنوات مرت وهذه المنظومة لم تتغير، حتي بعد أن مات عم فخري، وحل محله ابنه الذي لا يقل عنه أدبًا واحترامًا، صحيح أن علاقتنا به لم تصل إلي حد أن يقرضنا نقودًا بدلًا من أن يطالبنا بالإيجار، لكنه استمر علي نهج والده، الذي أورثه الخلق الرفيع والأدب الجم..

ومع نهاية كل عام دراسي كنا نوصي عم فخري ـ وابنه من بعده ـ بألا يؤجر الشقق لأحد سوانا، فيترك لنا المفاتيح، ويصرح لنا بالمبيت في عمارته خلال الإجازة الصيفية، إذا حضرنا لأسيوط في أي وقت..

ظل الإخوان حتي أنهيت دراستي يقيمون ندواتهم يوم الثلاثاء، واستمر أصدقائي اليساريون علي ولائهم لمبادئ الاشتراكية، حتي تفرقت بهم السبل، وشغلت الحياة بعضهم فأصبحوا مجرد متعاطفين، بينما أكمل البعض الآخر مسيرته، وأصبح عدد منهم يشغل مواقع تنظيمية مهمة في حزب التجمع، وحتي رحلنا عن أسيوط وأيامها الجميله، كان مفتش أمن الدولة يسكن في شقته، يجلس في الشرفة يوم راحته ليشرب الشاي، يذهب إلي عمله ويعود، دون أن تحرسه مدرعات أو يضطر جنوده لغلق الشارع..

وفي المرات القليلة التي سافرت فيها إلي أسيوط كنت حريصًا علي متابعة عمارة عم فخري من نافذة القطار، مرة واحدة ذهبت إلي هناك ومررت أسفل العمارة متطلعًا إليها، سألت زملائي بعد ذلك عن سر شرفاتها المغلقة دائمًا، فقيل لي إن نجل عم فخري يرفض تأجيرها، وبرر البعض ذلك بأن جهات أمنية أبدت تحفظها علي سكني طلاب الجامعة في هذه العمارة بالتحديد، ورغم عدم وجود دليل علي ذلك إلا أنني أجدني ميالًا لهذا التفسير، حيث إن

أحداث العنف والإرهاب قد اشتعلت بأسيوط والمنيا، في أوائل التسعينيات، بعد رحيلنا عنها، وأصبح رجال الأمن أهدافًا في قوائم الاغتيال التي أعدتها الجماعات المتطرفة..

لقد كنت محظوظًا لأنني رحلت عن أسيوط قبل اشتعال أحداث الإرهاب، عشت في عمارة عم فخري سنوات هي الأجمل في عمري كله حتي الآن، كان أغلب سكان العمارة من زملائي مثقفين ومسيسين، عرفت معهم الطريق إلي قصر الثقافة، مصنع الأدباء في ذلك الوقت، حضرت هناك أول ندوة أدبية في حياتي، بدأت كتابة القصة القصيرة وتتلمذت علي يد أدباء كبار، كانوا ومازالوا حتي الآن ملء السمع والبصر في أوساط المثقفين، حتي وإن لم يحققوا شهرة كبيرة، بدأت أختار بعناية ما أشاهده في السينما والمسرح، والأهم والأجمل من ذلك كله، أنني شاهدت كيف كان عم فخري، المسيحي، أبًا حنونًا، لنحو 16 شابًا مسلمًا مغتربًا، ورأيت ـ وهذا من فضل ربي ـ مسئولًا كبيرًا في مباحث أمن الدولة، يتعامل مع الناس بلياقة وأدب، ويري شبابًا يقفون في الشرفة المواجهة لشقته «بملابسهم الداخلية»، فلا يأمر باعتقالهم، اكتشفت أكاذيب الإخوان وعشت إحباط اليسار، لتظل عمارة عم فخري مثل مكان أسطوري، يداعب مخيلتي، كلما بحثت في الذاكرة عن أيام جميلة، أو ذكريات رائعة!